رحلة ابن العربى العلمية
دراسة فى المضمون والشكل

إعداد

الدكتور / رمضان حسانين جاد المولى

مقدمة

باسم الله العلى الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لـم يعلـم ، ونصلى ونسلم على الرسول الملهم ، وعلى آله وصحبه وسلم

أما بعد

فمن مودعات خزائن الكتب ، ومن مطمورات التـراث ، أقـدم هـذه الرحلة الأدبية التى اصطبغت بالطابع العلمى لفقيه أندلسى كبيـر ، ومـتكلم عرفته الأندلس قدير ؛ إنه القاضي الفقيه والرحالة الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي(٤٦٨هـ : ٥٤٣هـ الموافق ١٠٧٦م ١١٤٨م)

عرف النَّاس أبا بكر بن العربي قاضيًا وفقيهًا إسلاميًّا كبيرًا ، ومفسِّـرًا للقرآن وشارحًا للسنَّة ، كما أنَّه يعدُّ أصوليًّا عظيمًا ، وتناسى الكثيرون أنَّـه أديب ورحَّالة مشهور ، بل إنه أول من وضع أسس أدب الـرحلات ، لـيس في الأندلس وحسب ، بل في الغرب الإسلامي ١ ، ورحلته تتميز فـوق مـا حوته من معلومات جغرافية وتاريخية وغيرها ؛ بما حملته من قـيم أدبيـة وعلمية ؛ تتجلى في كونها كتبت بأسلوب أدبي رفيع ، يتميـز بالتصـوير الحي للأحداث التى رآها ، والوصف الـدقيق للأمـاكن التـى شـاهدِها ، ومعالجة دقائق الحياة الاجتماعية ، وتسجيل الانطباعات عن الحياة العلميـة والأدبية فى الأمصار الإسلامية التى حط فيها رحاله [٢] .

---

١ ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، أغناطيوس كراتشكوفسكي ، ترجمة صـلاح الدين هاشم، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م)، ص ٢٩٨.

٢ ـ كما ستكشف عنه الدراسة فيما بعد

لهذا رأيت أن أفرد هذه الدراسة للحديث عن تلك الرحلة ، وبيان ما فيها من قيم أدبية وعلمية .

وقد جاءت الدراسة فى فصلين من ستة مباحث

الفصل الأول ((الرحلة والرحالة)) ، وجاء فى ثلاثة مباحث

المبحث الأول : (أدب الرحلة بين الاصطلاح والتصنيف)

المبحث الثانى : (ابن العربى ودوافع رحلته وأهميتها)

المبحث الثالث : (الطابع العلمى لرحلة ابن العربى)

الفصل الثانى ((الخصائص الأدبية لرحلة ابن العربى)) ، وجاء فى ثلاثة مباحث

المبحث الأول : (أدبية الرحلة)

المبحث الثانى : (الموضوعية والذاتية فى رحلة ابن العربى)

المبحث الثالث : (الأسلوب بين السرد والوصف)

وختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها نتائج الدراسة ، ثم ذيلت ذلك بالمصادر والمراجع والفهارس .

هذا فإن أك قد وفقت فما توفيقى إلا بالله ، وإن شاب عملى النقص فالنقص من طبيعة البشر، والكمال لله وحد ، وكما يقولون مالا يدرك كله لا يترك كله ، وخير القلادة ما أحاط بالجيد .

الفصل الأول

الرحلة والرحالة

المبحث الأول

أدب الرحلة بين الاصطلاح والتصنيف

على الرغم من أن الرحلة قديمة قدم الإنسان ، فمنذ أن ألقى أدم عصا الترحال علي وجه الأرض ، بدأت رحلاته وذريته فيها من منطقة إلي أخرى ، وتعددت الرحلات بتعدد أهدافها ؛ فطلبا لكسب المعاش تارة ، و بحثا عن بيئة جديدة تارة أخري ، أو مطاردا مشردا حينا ، كما ساقهم حب المعرفة إلى المجازفة لمعرفة المجهول حينا آخر . أما تدوين هذه الرحلات أو تسجيلها فليس بين أيدينا بأبعد من تلك الرسوم التى صورتها جدران المعابد فبقيت لقرون طويلة ، أو الرحلات المقدسة التى أوردها لنا القرآن الكريم ١.

---

١ ــ ومن أشهرها تلك الرحلة البحرية التى قام بها سيدنا نوح وأتباعه من المؤمنين فى السفينة ؛ التى أنقذت البشرية من الفناء بالطوفان ، ورحلة بحرية أخرى تلك التى قام بها سيدنا يونس عليه السلام واكتملت أحداثها فى أعماق البحر عندما ابتلعه الحوت وتوجت بعودت بفضل الله سالما ، وقصة سيدنا إبراهيم تروى رحلاته المتعددة إلى مصر ثم إلى مكة بل كانت رحلات أسرية يصطحب فيها من أسرته من توجب ظروفه مرافقته ، ومن بعده رحلات موسى وعيسى عليهما السلام وهجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم تلك رحلات مقدسة ذات أهداف دينية ومقاصد إيمانية .

أما العرب فحياتهم فى الجزيرة حل وترحال غالبا ، فالرحلة عندهم ضرورية ضرورة الحياة ، لكن لغياب التدوين لا نعرف عن هذه الرحلات غير النذر اليسير، وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلتَي الشتاء والصيف ،

اللتين كانت قريش تقوم بهما من أجل التجارة : " لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ "١.

أما الرحلة في ظل الإسلام ؛ فقد اكتسبت شرعية محمودة ، وفرتها الآيات القرآنية المحببة للنقلة والترحال ؛ من مثل قوله تعالى (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)٢ فحثهم على الرحلة سعيا للرزق ، كما حثهم على الرحلة من أجل العلم والتفكر فى قوله جل وعلا (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)٣ فكانت دوافع العرب المسلمين مستظلة بظل القرآن فحرصوا على الرحلة وتحمسوا لها ، كما سيأتى بيانه٤.

ومع كل التاريخ الطويل للرحلة ؛ فقد خلت المعاجم والموسوعات المتخصصة تقريبا من إيراد تعريف لأدب الرحلة ، فمعجم مصطلحات الأدب (وهو معجم متخصص) ، لم يورد أية إشارة للرحلة أو أدبها ، واكتفى بإشارة مقتضبة للرحلة الخيالية (وهى قصة رحلة يقوم بها الإنسان إلى

---

١ - سورة قريش، الآية الأولى

٢ ـ سورة الملك آية ١٥

٣ ـ سورة العنكبوت آية ٢٠

٤ ـ المبحث الثالث ، الطابع العلمى لرحلة ابن العربى

مناطق غير حقيقية وتصور مغامرات خارقة بغرض التسلية وإثارة الخيال) وضرب لها مثالا بقصة السندباد البحرى ١ ، أما المعجم الأدبـي ــ وهــو معجم متخصص كذلك ــ فعلى الرغم من حديثه عن الرحلة لم يقدم تعريفـا لها ، بل اكتفى بكلام عام ؛ يقول : "تمثل الرحلة في الأدب العربي منزلـة رفيعـة ، وأصبحت من الفنون الشائعة في معظم بلدان العالم"٢. ثم يشيـر إلى بعض خصائص أدب الرحلة" من الوصف الطريف للواقع ، والسـرد الفني للمغامرة الإنسانية ، والعواطف المحركة للبشر.. "٣.

ونعزى ذلك إلى تعدد مضامينها وتشعب موضوعاتها ، وتـداخلها مـع علوم أخرى اجتماعية وإنسانية " إذ تتوفر فيه ــ أى نص الرحلة ــ مـادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب ، بل أيضا لعلماء الاجتمـاع والاقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين ، وللغويين وعلمـاء الطبيعـة"٤ وهى بهذا الثراء تسمح لكل باحث أن يجد فيها مبتغاه ولذا ؛ رأينا مسـميات لنص الرحلة غلبت عليها اهتمامات مصطلحيها وتخصصـاتهم ، فـأطلقوا عليها المسميات المختلفة طبقا لطبيعة المحتوى الذى أرادوه منها ؛ فصنفت

١- معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعـة الثانيـة ، ١٩٨٤، ص.١٧٦ .

٢- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعـة الثانيـة ١٩٨٤، ص. ١٢١.

٣- المعجم الأدبي، المرجع السابق ص ١٢١

٤- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، مرجع سابق ص. ١٩.

على أنها من الأدب الجغرافي١، أو كتب التاريخ٢ ، أو فرع من فروع الأنثربولوجي[٣] ، أو ضمن الفن القصصي٤ ، وهكذا صنفها أرباب التخصصات المختلفة وفق تخصصاتهم ، وهذا أدى إلى "صعوبة القبض على تعريف يجمع في حده زخم الخصوصيات والتنويعات في النصوص

١- كما فعل كراتشكوفسكي في كتابه : تاريخ الأدب الجغرافي العربي المرجع السابق .

٢ - كما فعل الأساتذة: محمد المنوني في كتابه : المصادر العربية لتاريخ المغرب، من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ح١ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م وابن سودة في كتابه: دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، تأليف : عبد السلام بن سودة المري ضبط واستدراك مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر منشورات : دار الفكر للطباعة والنشر ـ بيروت الطبعة الاولى ـ ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م ، وليفي بروفنصال في كتابه : مؤرخو الشرفاء. بروفنصال، ليفي خلادي، عبد القادر دار المغرب ، ١٩٧٧ .

٣ ـ تعرّف الأنثروبولوجيا، بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معيّنة ، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) /الدكتور عيسى الشمّاس / من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٤

٤- وهذا صنيع شوقي ضيف في كتابه : الرحلات ، حيث أدرجه تحت الفن القصصي

الرحلية العربية"[1] ، وجعل نص الرحلة مستعصيا على الانتساب النوعي ، وانعكس ذلك على التسمية التي أصبحت متعثرة أو متعددة[2].

إن إشكالية التصنيف ، تبدو إشكالية معقدة ؛ بالقياس إلى النصوص المتنوعة التى يحويها نص الرحلة ، ومن ثم نجدها نصا ملتبسا لا يأخذ مشروعية النسبة إلى جنس خاص نصطلح عليه ، ويخلص له النص ؛ لكننا إذا وسعنا دائرة الرؤية حول نص الرحلة نجد أن التنوع والثراء اللذين تمتاز بهما الرحلة المدونة (نص الرحلة) هو تعدد موضوعى لكن قالب الكتابة فى كل الرحلات تجمعه قواسم مشتركة فيما بينها ، وتحتوى هذه النصوص على عناصر مشتركة ، وهذه "العناصر المشتركة بين كل هذه الأنواع/ الأشكال، تظل واحدة في تعددها ، تتعددا أسلوبيا وتتخذ أوضاعا شتى في السياقات الموضوعة لها"[3] . وهذا يعنى أن هناك عناصر مشتركة بين كل الرحلات كأنما تمثل تقنيات فنية متعارفة ، والأصل فى التجنيس هو القالب الفنى الذى يحمل العناصر المشتركة التى يتميز بها جنس أدبى عن آخر ، فوجود بعض المعلومات التاريخية لا يجعلها مؤلفا في التاريخ ، ولا وجود بعض الإفادات الجغرافية يستلزم كونها كتابا في الجغرافية ، وهلم جرا ، بل 'إن الموسوعية فى هذا الجنس صارت من خصائصه المشتركة مما يتيح لنا الاطمئنان إلى أن الرحلة جنس أدبي قائم

١- الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ٢٠٠٣، ص. ١٦٥

٢ - الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق ، ص. ٢٠بتصرف يسير

٣- الرحلة في الأدب العربي، المرجع السابق ، ص. ٢١.

بذاته له مميزاتــه وخصائصــه واستقلالــه من خلال تراكم نصى تشــترك فى معايير محددة ، تمنعــنا مــن إدخالــه ضــمن تســميات مثــل : الأدب الجغرافي، والجغرافيا الوصفية ، وخلافه ، وإن حوت كتب الرحلات كل هذه المعارف .

وهذه محاولة لتأسيس تعريف لأدب الرحلة

فى اللغة : تدور مادة (رحل) حول السفر والتنقل والترحــال ، ففــى لساب العرب: "رحل الرجل؛ إذا سار، ورجــل رَحــول، وقــوم رُحّــل؛ أي يرتحلون كثيرا. ورجل رحّال : عالم بــذلك ومجيــد لــه [...] والترحــل والارتحال : الانتقال. والرّحلة : اسم للارتحال. وقال بعضــهم : الرِّحلــة : الارتحال، والرُّحلة بالضم : الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"١ . وفي القاموس المحيط : "ارتحل البعير : سار ومضى ، والقــوم عــن المكــان : انتقلــوا، كتَرَحَّلُوا. والاسم : الرِّحلة والرُّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر : الارتحــال، وبالضم : الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة"٢. وفي معجم مقاييس اللغة : "رحل : الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضي في سفر. يقــال :

١ــ لسان العرب : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابــن منظــور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هــ) الناشر: دار صــادر – بيــروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هــ، مادة : رحل.

٢ _ القاموس المحيط : مجد الدين أبو طاهر محمــد بــن يعقــوب الفيروزآبــادى (المتوفى: ٨١٧هــ) تحقيــق: مكتــب تحقيــق التــراث فــي مؤسســة الرســالة الناشــر: مؤسســة الرســالة للطباعــة والنشــر والتوزيــع، بيــروت – لبنــان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هــ – ٢٠٠٥ م، مادة : رحل.

رحل يرحل رحلة [...]. والرحلة : الارتحال [...]. ورَحَّلَه، إذا أظْعَنَه من مكانه"[1] ، وكما عرضنا تكاد المعاجم تتفق على هذه الدلالة للكلمة وهى السفر والتنقل والترحال ، وهى بهذا المعنى إذًا ؛ لا تكاد تختلف عما هو متعارف عليه مجتمعيا من أن الرحلة هى : انتقال من مكان إلى آخر.

وعلى ندرة التعريفات الواردة للمصطلح التى عثرنا عليها ؛ نذكر ما ورد فى قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية يقول: "أدب الرحلات هو نوع أدبي يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته ، من عمران ، وأحداث ، وأشخاص ، وعادات ، وتقاليد ، وغيرها"[2].

والملاحظ على هذا التعريف أنه يخرج من الرحلات كثيرا من الكتابات التي لم يكتبها أدباء ، لعله اتجه لهذا حتى يضمن ارتفاع مستوى التعبير إلى المستوى الأدبى ، وكان الأولى أن يعول فى ذلك على النص وليس على الكاتب ، فليس شرطا ان يكتب الرحلة أديبا لضمان الوصول إلى كتابة أدبية شائقة ؛ فقد يحصّل هذا باحث متمرس وليس بأديب ، فتدرج كتاباته ضمن أدب الرحلات ، و تعريف آخر يرى أن : "أدب الرحلات إذن، هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية ، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة

---

١ - معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكرعام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.، مادة : رحل.

٢- قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي-إنكليزي-فرنسي، إميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص. ٢٥.

إلى بلد من بلدان العالم ، ويدوّن وصفا لــه ، يسـجل فيـه مشـاهداته ، وانطباعاته بدرجة من الدقّة والصدق وجمـال الأسـلوب والقـدرة علـى التعبير"١ والتعريف ينص على تسجيل المشاهدات والانطباعـات ، ويضـع الشروط التي ينبغي توافرها في هذا التسجيل : الدقـة والصـدق وجمـال الأسلوب والقدرة على التعبير. ولاشك أن هذه الشروط قد لا نجدها في كـل الرحلات ، وعلى الرغم من ذلك تدرج ضـمن أدب الرحلــة ، أي أن هـذه الشروط ليست محددات تسمى الكتابة أدب رحلة بحضـورها ، ولا تسـمى كذلك فى حال فقدها أو بعضها . وهكذا وجدنا بعـض التعريفـات تؤسـس لمصطلح (أدب الرحلة) ، وهى عندى : المدونة التـى يصـنعها الرحالـة يسرد فيها أحداث سفره وما شاهده ، وعايشه من أحـداث ، مازجـا ذلـك بانطباعاته الذاتية. وليتحقق ذلك ، وينجز هذا اللون ، ويضاف إلى رصـيد المنجز الإبداعى ؛ يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهلـه لتقديم رؤية فكرية وهو يقدم لنا المكان والزمان والبشر. كما أنـه يتمتـع بحاسة أدبية يستطيع بها التعبير عن رحلته تعبيرا أدبيا راقيا.

ولابد من التلازم بين الرحلة الفعلية والتعبير عنها حتـى نسـميه أدب رحلة ، فلا يمكن تصور كتابة أدب رحلة بدون رحلة فعلية أمـا الـرحلات

---

١ -"الرحلات في الأدب الإنجليزي"، إنجيل بطرس، مجلة الهلال، العـدد ٧، السـنة ٨٣، يوليو ١٩٧٥، ص.٥٢.

الخيالية كـ"رسالة الغفران١" لأبي العلاء المعري، و"رسالة التوابع والزوابع٢ " لابن شهيد، و"التوهم٣ " للحارث المحاسبي.فلا تندرج تحت هذا المصطلح ؛ فهناك فوارق بين الرحلة المتخيلة والرحلة الحقيقية ، فالرحلة المتخيلة ، هى رحلة من خيال الكاتب ليس لها من الواقع نصيب ، فهى سياحة فكرية ، غالبا ما تحمل رؤى فلسفية ، وأفكار خاصة بكاتبها ، وهى وإن اعتمدت على السرد والوصف ؛ إلا أن السرد فيها يستعين به الكاتب على تحليل أفكاره الذاتية التى يريد نقلها للمتلقى ، كما أن الوصف لا يحمل من الواقع الحقيقى صورته ، وهى وإن كانت عملا أدبيا له جماله وحضوره فى ساحة الإبداع ؛ فهى ليست من أدب الرحلة ، أما أدب الرحلة الذى يعنينا بالحديث والبحث فإنه مدونة لرحلة حقيقية (...تعنى بالوصف الدقيق ، و التصوير الأمين ، والنقل الصادق ، بدافع تحرى الدقة تحريا موضوعيا ، وهى عندئذ ، تتحلى بالابتعاد عن الهوى والميل والغرض الذاتى .)٤، ورحلة ابن العربى التى تحت بصر الدراسة قد استوفت الشروط الفنية لوصف ومصطلح رحلة كما سيأتى بيان ذلك .

---

١ ــ رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، تحقيق وشرح د / عائشة عبد الرحمن / ط٩ / دار المعارف . بدون تاريخ

٢ ــ رسالة التوابع والزوابع " أبو عامر ابن شهيد الأشجعى الأندلسى / تحقيق إحسان عباس ، نشر جامع التراث

٣ ــ التوهم للحارث المحاسبي ، طبع المكتبة الإسلامية - القاهرة . سنة ٢٠٠٦

٤ ــ مشوار كتب الرحلة ــ قديما وحديثا ــ د / سيد حامد النساج / مكتبة غريب / بدون تاريخ / ص٩

المبحث الثاني

ابن العربي ودوافع رحلته وأهميتها

نسبه ومولده :

هو الإمام العلامة الحافظ القاضي الفقيه والرحالة الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري الأشبيلي المالكي

ومعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ : بطن مــنِ زيــد كهــلان ، وكهــلان وهمدان تعدان من أكبر القبائل اليمنية حتى القرن الثامن الهجرى١ ، وذكر ابن حزم : أن منهم بيوتا متفرقة فى الأندلس ، وليس لهــم دار جامعــة ٢ عددها ولم يشر إلى آل العربى من بينها ، لأنـــه قــد اعتمــد علـــى رؤس عائلات القبيلة المشهورين منه ، ويبدو أن أسرة العربـــى حــين دون ابـــن حزم كتابه ؛ لم تكن بعد قد نالت من الشهرة نصيبا بعد٣

فقد كان أبوه عبد الله بن محمد بن العربي من وجوه علمـــاء الدولـــة وكبار أعيانها ، وكانت لها حظوة لدى المعتمد بن عباد[٤] فـــي عصـــر دول الطوائف ، جاء فى نفح الطيب "وكان أبوه أبو محمدَّ باشبيلية بــدرًا فـــي

---

١ ــ تاريخ ابن خلدون المسمي، بكتاب العبر و ديوان المبتداء و الخبر في ايــام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر طبعة دار الكتــاب اللبناني ج ٢ ص ٢٥٦.

٢ ــ جمهرة أنساب العرب ــ علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظــاهري التصنيف: طبعه دار المعارف-مصر سنه ١٩٣٤ ص ٤١٨ .

٣ــ مع القاضى ابن العربى ــ سعيد أعراب ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت لبنان ، ط١، ١٤٠٧هــ ، ١٩٨٧م ، ص٩

٤ ــ هو محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمى الملقب بالمعتمد صاحب إشبيلية وقرطبة وما والاهما ، ويعد من أعظم ملوك الطوائف ، استوزر العلماء والأدباء ت ٤٨٨ ونفح الطيب أحمد بن المقري التلمساني - تحقيق إحسان عباس ، دار صادر - بيروت - ١٩٦٨م.- ص ٢٢٤ ج٤ (صفحات متفرقة فى باقى أجزاء الكتاب) ،

فلكها ، وصدراً في مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بني عبّاد، .... وولاه الولايات الشّريفة ، وبوّأه المراتب المنيفة"[1] ، كما كان خاله أبو القاسم الحسن بن أبي حفص عمر بن الحسن الهوزنى ، في مكانة رفيعة من المجتمع الأندلسي ، فيذكر المؤرخون أن أسرة (أبو حفص) خاضت غمار السياسة ، فقد كان أبو حفص عالم الأندلس ومحدثها ، وكان أديبا أريبا ، ولبيبا فطنا ، زاحم المعتمد بن عباد ، فتخلص منه بالقتل ، وهال عليه التراب فى قصره ، وكان أبو القاسم أديب وفقيه ، له المشورة والرأى ، وقد اتصل بيوسف بن تاشفين[2] ، وحرضه على ابن عباد حتى أطاح بدولته ، وأزال ملكه[3]

في أحضان هذه الأسرة العريقة ، وفى كبريات عواصم الأندلس – وقتئذ – مدينة أشبيلية[4] ، كان مولده – في يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر

١ـ نفح الطيب ،مصدر سابق ، ج٢ – ص ٣٤ .

٢ـ هو السلطان بن يعقوب اللمتونى البربرى الملثم ويعرف بصاحب الغرب ، وبأمير المرابطين ، انظر ترجمته ، شذرات الذهب / / لابن العماد ، دار الكتب العلمية ج٣ ص٤١٢ .

٣ـ الذخيرة ابن بسام ، تحقيق : سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية م١ ص ٨١ : ٩٠.

٤ ـ هى إحدى حواضر الأندلس ، وتسمّى حمصة تقع غربى قرطبة ، قريبة من البحر قريبة من البحر، يطل عليها جبل الشّرف، وهو جبل كثير الشجر والزيتون

شعبان سنة ٤٦٨هـ، ٣١ مارس ١٠٧٦م، ذكر ابن بشكوال أنه قد سأل شيخه ابن العربى عن مولده فقال له : ولدت ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربع مائة ١

تعليمه وثقافته :

نشأ نشأة دينيَّة ، وحفِظ القرآن الكريم ابنَ تسع سنين ، ثم أتْقن العربيَّة والشعر وعلم الحساب على يد أبيه وخاله ، وجلس إلى العُلماء واستمع منهم ، حتَّى أصبح من حفَّاظ الحديث ، وبلغ رتْبة الاجتهاد في علوم الدين ، كما برع في الشِّعر والأدب .

قال عن نفسه : (فلم يأت على ابتداء الأشد فى العام السادس عشر من العدد إلا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحوا من عشرة بما يتبعها من إدغام وإظهار وتخفيف وشد وتحريك وتسكين وقصر ومد وحذف وتتميم وترقيق وتفخيم . وقد جمعت من العربية فنونا ، وتصرفت فيها تمرينا) ويمضى فى تعداد المؤلفات التى استظهرها ٢ ، ومرت الأيام فازداد تحصيلا وشغفا ، ثم كانت رحلته إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد ، مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربع مائة ، فطاف بلاد المغرب والشام ومصر وبغداد والحجاز يلقي العلماء ، فيأخذ عنهم ، يتفقه ويتزود ،

وسائر الفواكه وهي على شاطئي نهر عظيم، يقال له وادي الكبير ؛ انظر : معجم البلدان / ياقوت الحموى ، ج١ ، باب الهمزة والشين وما يليهما ص١٩٥

١ــأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، أحمد أبو العباس المقري التلمساني

٢ ــ قانون التأويل – أبو بكر بن العربي / تحقيق محمد السليماني – دار الغرب الإسلامي– بيروت – ١٩٩٠م ص٤١٦ ، وما بعدها .

ليعود إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين بخير زاد ، نقل عنه أنَّه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضي أبو الوليد الباجي، أو كلاهما هذا معناه. أو قال: لم يرحل غيري وغير الباجي[1] ، وأما غيرنا فقد تعب ، أو نحو هذا، مما لم تحصني عباراته الآن ، وصار بدر يسطع في سماء العلم والمعرفة من " أهل التفنُّن في العلوم ، متقدِّمًا في المعارف كلِّها ، متكلِّمًا على أنواعها ، حريصًا على نشرِها ،...... وقيَّد الحديث، وضبط ما روى ، واتَّسع في الرواية ، وأتقَن مسائل الخلاف والأصول والكلام"[2].

ثم تولى قضاء اشبيلية فـ(قام بأمر القضاء أحمد قيام ، مع الصَّرامة في الحق ، والقوَّة والشدَّة على الظَّالمين والرِّفق بالمساكين)[3] فلما صرف عن القضاء ، أقبل على نشر العلم وبثه وعمل رحمه الله تعالى على مدينة إشبيلية سوراً بالحجارة والآجر بالنورة من ماله ، وكان -كما في الصلة- حريصاً على آدابها وسيرها ، ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ، ولين الكنف ، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود .[4]

وفاته:

---

١ ــ هو الإمام الحافظ أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبى الباجى ، من العلماء المجددين توفى س٤٧٤هـ ، الصلة / ابن باشكوال ص٢٠٠ ،سير أعلام النبلاء للذهبى ص٥٥٣

٢ ــ نفح الطيب ، التلمساني - تحقيق إحسان عباس ، مصدر سابق ج٢ص٢٩.

٣ــ نفح الطيب ، التلمساني - تحقيق إحسان عباس ، مصدر سابق ج٢ص٢٩.

٤ ــ المصدر السابق ج٢ ص٢٩

بعد سقوط دولة بني تاشفين على يد عبد المؤمن بن علي[1] صاحب دولة الموحدين في أواخر شيخوخته . أخذت وفود مدائن الأندلس تفد على مراكش طالبة من عبد المؤمن الاستيلاء على بلادهم من بقايا المرابطين . وحضر في سنة ٥٤٢ وفد (إشبيلية) برئاسة عظيمها وكبير علمائها الإمام أبي بكر بن العربي . ولسبب غامض لا نعرفه إلى الآن حبس عبد المؤمن هذا الوفد في مراكش نحو عام ، ثم سرحوا ، فأدركته منيته من صرفه من مراكش في موضع يسمي (أغلان) على مسيرة يوم من فاس غربا منها ، فاحتمل ميتا إلى فاس في اليوم الثاني من موته، وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج، ودفن في يوم الأحد ٧ ربيع الأول سنة ٥٤٣ خارج المحروق أعلى مدينة فاس بتربة القائد مظفر . رحمه الله.[2]

وبموته انطفأت شعلة من الذكاء متقدة ، وأفل نجم طالما سطع في سماء الغرب ، ووصل ضوؤه إلى الشرق ، وسكنت روح طموحة متوثبة ، وخمد ذهن وقاد ، طالما قدح الزناد ؛ لينير طريق العلم للعباد ؛ فيبدد ظلمات جهل حالكة {رحمه الله رحمة واسعة} .

مكانته العلمية وأراء العلماء فيه

---

١ ـ عبدالمومن الكومي (٤٨٧ - ٥٥٨ ه = ١٠٩٤ - ١١٦٣ م) عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي: أمير المؤمنين، مؤسس دولة " الموحدين " المؤمنية في المغرب وإفريقية وتونس. الأعلام للزركلي ج٤ ص١٧٠

٢ ـ المصدر السابق ج٢ ص٢٩

ترجم له ابن العماد فى شذرات الذهب ، واصفا إياه (مفرط فى الذكاء ، عالم ناقد متبحر ، قادر على نشر ساتر علومه ، مع الأدب وحسن المعاشرة ولين الجانب) ١

و يقول عنه السيوطى فى طبقة الحفاظ : (برع فى الأدب ، وكان ثاقب الذهن كريم الشمائل كما كان شديدا فى الحق ، ينتصر للمظلوم ، وقد بلغ رتبة الاجتهاد) ٢ ، وجاء فى نفح الطيب "وكان من أهل التفنُّن في العلوم ،متقدِّمًا في المعارف كلِّها متكلِّمًا على أنواعها، حريصًا على نشرِها، وقام بأمر القضاء أحمد قيام ، مع الصَّرامة في الحق، والقوَّة والشدَّة على الظَّالمين والرِّفق بالمساكين ...... وقيَّد الحديث ، وضبط ما روى ، واتَّسع في الرواية ، وأتْقَن مسائل الخلاف والأصول والكلام"٣

<u>شيوخه</u>

تلقى العلم على أيدى كوكبة من شموس علماء الإسلام ، فسمع أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزني[٤] وأبا عبد الله السرقسطي[١] ، و الكلاعي[٢]

١ـ شذرات الذهب / لابن العماد ، دار الكتب العلمية ج٤ ص ١٤٢

٢ـ طبقات الحفاظ للسيوطى ، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ، ١٤٠٣هـ ص ٤٦٨

٣ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق إحسان عباس ، مصدر سابق- ج٢ - ص٢٩ .

٤ ـ الحسن بن عمر بن الحسن الهوزني : من أهل إشبيلية يكنى : أبا القاسم رحل إلى المشرق وحج ، وتوفي رحمه الله في ذي القعدة من سنة اثنتي عشرة وخمس مائة . ومولده سنة خمس وثلاثين وأربع مائة ... التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، تحقيق عزت العطار الحسينى، القاهرة، ١٩٥٥م،ج ٢ ص٣٢٢ .

، و فخر الإسلام أبا بكر محمد بن أحمد بن الحسين بـــن عمـــر الشاشـــي[3] الشافعي ، والإمام أبا حامد الطوسي الغزالي[4] ، وغيرهم كثير[5].

تلاميذه

وأقبل على نشر العلم وبثه ، و أخذ عنه ، وتلقى عليه طائفة من كبـــار علماء الإسلام ، منهم : قاضي المغرب وحافظه القاضي عياض بن موســـى

١ـ هو الحافظ القاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن أبو محمد السرقسطي، ولد سنة ٢٥٥هـ بمدينة سرقسطة الاندلوسية، رحل إلى مكة ومصر لطلب الحديث من مشائخ أهل الحجازواهل الكنانة ، الأعلام خير الدين الزركلى ط بيروت ١٩٨٠م ، ج٢ ص٩٧

٢ـ أحمد بن الحسن بن علي، أبو جعفر الكلاعي البلشي، ابن الزيات: مقرئ، عارف بالادب. كان شيخ مدينة بلش (بالاندلس).من كتبه (لذة السمع في القرآت السبع) قصيدة على نمط الشاطبية. ، الأعلام ، مصدر سابق ج١ص١١١.

٣ ـ محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، أبو بكر الشاشي القفال الفارقي، الملقب فخر الاسلام، المستظهري: ولد بميافارقين، ورحل إلى بغداد فتولى فيها التدريس بالمدرسة النظامية (سنة ٥٠٤) ، الأعلام ، مصدر سابق ج٥ص ٣١٦.

٤ ـ الغزالي (٠٠٠ - ٥٢٠ ه = ٠٠٠ - ١١٢٦ م) أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد، أبو الفتوح، مجد الدين الطوسي الغزالي: واعظ، هو أخو الامام أبي حامد (محمد ابن محمد) الغزالي. الأعلام ، مصدر سابق ج١ص ٢١٤

٥ تجد تفصيلا لشيوخه فى مقدمة محب الدين الخطيب عند تحقيق كتاب (العواصم من القواصم) تحقيق محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الاستانبولي الناشر : دار الجيل بيروت – لبنان الطبعة : الثانية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ودراسة/ محمد السليمانى فى صدر تحقيق قانون التأويل مصدر سابق ص١٦١وما بعدها

اليحصبى[1] ، والحافظ المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال[2] ، وغيرهما كثير[3].

مؤلفاته

للإمام القاضي أبي بكر بن العربي مؤلفات كثيرة لم يصلنا أغلبها ، وقد قضى أربعين سنة في الإملاء والتدريس، وفي بث ما حصله من العلوم ، ونستطيع أن نصنف أسماء مصنفاته حسب موضوعاتها ، أما التصنيف حسب تاريخ تأليفها فمن الصعب القيام به؛ لأنه يحيل إلى كتبه في أماكن كثيرة من مصنفاته ، مما يدل على أنه يملي في وقت واحد عدة كتب ، وأنه لا يقتصر على كتاب واحد حتى يفرغ منه ، ثم يبدأ في غيره وقد نيفت مؤلفاته فوق الأربعين فقد صنف فى التفسير وعلوم القرآن وشروح

١ــ القاضي عياض (٤٧٦ - ٥٤٤ ﻫ = ١٠٨٣ - ١١٤٩ م) عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: ولي قضاء سبتة، ثم غرناطة ، من تصانيفه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، الأعلام ، مصدر سابق ج٥ص ٩٩.

٢ خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال ، الأنصاري من أهل قرطبة كنيته أبو القاسم ، وألف خمسين تأليفاً في أنواع مختلفة منها ، ولي بإشبيلية قضاء.توفي سنة ٥٧٨هــ الأعلام ، مصدر سابق ج٥ص ٩٩. .

٣ ــ تجد تفصيلا لكل ذلك فى مقدمة محب الدين الخطيب عند تحقيق كتاب (العواصم من القواصم) مصدر سابق ، وفى صدر تحقيق قانون التأويل مصدر سابق ، ص١٦١وما بعدها

الحديث وعلوم الحديث وأصول الدين وعلم الكلام كتب الزهد وأصول الفقه وكتب الفقه "المذاهب" وفى الجدل والمناظرات واللغة والنحو التاريخ ١

شعره

ولابن العربى شعر ، عبارة عن مقطوعات قصيرة يغلب عليها الظرف والملحة كما هو الشأن فى شعر العلماء ، ومن شعره وقد ركب مع أحد الأمراء الملثمين، وكان ذلك الأمير صغيراً، فهز عليه رمحاً كان في يده مداعباً له، فقال:

يهز علي الرمح ظبي مهفهف	لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحاً واحداً لاتقيته	ولكنه رمح وثان وثالث

وقد اختلف حذاق الأدباء في قوله: ولكنه رمح وثان وثالث ما هو الثاني والثالث؟ فقيل: القد واللحظ، وقيل غير ذلك. ٢

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة في لباس خشن: ٣

لبس الصوف لكي أنكره	وأتانا شاحباً قد عبسا

١ـ تجد تفصيلا لهذه المؤلفات فى مقدمة محب الدين الخطيب عند تحقيق كتاب (العواصم من القواصم) مصدر سابق ، وفى صدر تحقيق قانون التأويل مصدر سابق ، قائمة بمؤلفاته ص٢٠١ وما بعدها.

٢ـ الكتاب: الحلة السيراء، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: ٦٥٨هـ) تحقيق : الدكتور حسين مؤنس ، دار المعارف – القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٩٨٥م ص٦ والبيتان من الطويل

٣ ـ المغرب فى حلى المغرب ،ابن سعيد المغربي ، تحقيق / شوقى ضيف ، دار المعارف ، بدون تاريخ ، ط ٤ ج١ ص٢٥٥' والأبيات من الرمل .

قلت إيه عرفنـــــاك وذا	جل سوء لا يعيب الفرسا
كل شيء أنت فيه حسن	لا يبالي حســـــن ما لبسا

ومن بديع نظمه: ١

أتتني تؤنبني بالبكـــــاء فأهــلاً بها وبتأنيبهـــا

تقول وفي نفسها حســـرة: أتبكي بعين تراني بهـــا؟

فقلت: إذا استحسنت غيركم أمرت جفوني بتعذيبهـــا

والملاحظ أن الأبيات تكشف عن قدرة تعبيرية ، وحسن تصـرف فـى الآداء ، وهى تدخل فى باب الظرف والملحة ؛ مقصودة الآداء لهذا الغرض ، ليس فيها تجربة شعرية حقيقية ، وإنما تدخل فى دائرة إبـراز المقـدرة على التعبير الشعرى ، والتبارى فى ميدانه ، وقد درج العلماء على إظهـار مقدرتهم فيها على نحو ما يذكر ابن العربى نفسه يقول : دخل علي الأديـب ابن صارة[٢] وبين يدي نار علاها رماد، فقلت له: قل في هذه، فقـال: مـن [الكامل]٣

---

١ ــ نفح الطيب ، التلمساني – تحقيق إحسان عباس ، مصـدر سـابق- ج٢ – ص٣٠ الأبيات من المتقارب

٢ ــ شاعر الأندلس أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة ، ويقال : سارة ، اللغوي الشنتريني نزيل إشبيلية نسخ بخطه المليح للناس كثيرا ومدح الأمراء ، وكتب لبعضهم ، وله ديوان مشهور. توفي سنة سبع عشرة وخمسمائة. ، سير اعلام النبلاء ، محمد بن احمد عثمان الذهبى مؤسسة الرسالة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م ج١٩ص٤٥٩

٣ ــ المصدر السابق- ج٢ – ص. ٣٤

شابت نواصي النار بعد سوادها   وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لي أجز، فقلت: [الكامل]

شابت كما شبنـــا وزال شبابنـــا   فكأنــما كنا على ميعـــاد

رحلته أهميتها ودواعيها :

يعد أبو بكر بن العربى أول مغربي وصف رحلته إلى المشـــرق وصـــفاً دقيقاً ، ودونها في كتاب ــ كما أشرنا من قبل ــ ، وقد ســـبق ابـــن جبيـــر الكناني (المتوفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧م) فى تدوين أول رحلـــة أدبيـــة مغربية إلى المشرق والحجاز ، بنصف قرن على الأقلّ ، ليظهر فى محيطنـــا الأدبى (أدب الرحلات) ، فابنُ العربي هو أوَّل مَن وضع أسُسه ودونها فـــى شكل كتاب أسماه (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة) فـــى أواخـــر القـــرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وبذلك أصبح رائد أدب الـــرحلات ، و أول من وضع أسسه ، ليس فيِ الأنـــدلس وحســـب ، بـــل فـــي الغـــرب لإسلامي١ ؛ وهذا بخلاف ما ذهب إليه كثير مـــن البـــاحثين٢ (مـــن أن أدب الرحلات لم يُعرف في الأندلس إلا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بمجيء ابن جبير الكناني (ت: ٦١٤ه ١٢١٧م)، الذي رحل ثلاثـــاً

١ــ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، أغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين هاشم، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م)، ص ٢٩٨.

٢ ــ منهم على سبيل المثال ، محمد المنوني، الجزيـــرة العربيـــة فـــي الجغرافيـــا والرحلات المغربية وما إليها، الندوة الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، ج٢، ص٢٩٩.

من الأندلس إلى المشرق الإسلامي، مبتدئا أولى رحلاته في عام ٥٧٨هـ وقد حج في كل واحدة منها، ثم دون رحلاته في كتابه :

(تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار)١

وبالبحث تبين أن القاضي أبا بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ ١١٤٨م) قد سبق ابن جبير في كتابة أدب الرحلة ، ولعل فقدان كتاب ابن العربي (ترتيب الرحلة للترغيب في الملة)٢، هو الذي أعطى بعض الباحثين انطباعاً بعدم أسبقية ابن العربي إلى كتابة أدب الرحلة ؛ لكن الكتاب فقد في حياة مؤلفه وأدرك هو تلك الحقيقة وأشار إليها بقوله : "فلما شذ في معرض المقادير واستلبته الحوادث بما سبق في علم الله من التدبير، رأينا أن نجدد ما سلم من الرقاع الموجودة مع ما حضر في الذكر، ليكون عونا على ما جرى ، وتنبيها فضل على ما تأوب وسرى) الحوادث قد استلبته"٣. ، ومن ثم راح يستعيض عنه بتلخيصه في مقدمة كتابه: «قانون التأويل»، الذي حققه الدكتور محمد السليماني، ونشره عام

---

١ ــ طبع هذا اكتاب في ليدن سنة (١٨٥٢م)، تحت عنوان «رحلة ابن جبير» أو «الرحلة إلى المشرق» ثم طبع ثانية سنة (١٩٠٧م)، انظر: يوسف سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، (القاهرة: مطبعة سركيس، (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م)، ص ٦٢.

٢ ــ ،مخطوط / المصدر : مؤسسة الملك عبد العزيز الدار البيضاء /رقم المخطوط : ٢/٨١ /عدد الاوراق : ٤١/

٣ــ قانون التأويل : أبو بكر بن العربي - تحقيق محمد السليماني - دار الغرب الإسلامي- بيروت - ١٩٩٠م.- ص٦٨

مات (١٤٠٦هـ ١٩٨٦م) كما جرد ابن العربي جانباً من كتاب «ترتيب الرحلة» وأعطاه عنوان: «شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان»[١] ، ونُشر الكتاب بتحقيق محمد يعلى سنة (١٩٩٦م) ، كما قام الأستاذ سعيد أعراب بتجريد هذه الخلاصة ، وعمل على تحقيقها ، وألحقها بدراسة له عن ابن العربي ٢ ؛ قطعا فإن تلخيص ابنُ العربي لرحلته ، ومحاولة تعويض الكتابة الأولى على نحو ما صنع ، لا يمكن أن تكون بديلا عن الأصل المفقود ، ولكن من حسن الحظ أن معالم رحلته ، لم يقف حديثه عنها وتسجيله لها عند كتابيه السالفين ، بل حوت بطون الكتُب الأخرى التي ألفها ابن العربي مثل كتاب: أحكام القرآن٣، وكتاب: عارضة الأحوذي بشرح صحيح التِّرمذي٤، بقايا مهمَّة تناثرت فيها عن رحلته ؛ لعلها تعين على إكمال جوانب مهمة من الرحلة ، وتضيف إكمالا لما أغفلته ذاكرة ابن العربى من الأصل الأول المفقود إن شاء الله .

---

١ ــ علمت أن هذا الكتاب نشر بتحقيق محمد يعلى – الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي – مدريد ١٩٩٦م، ولكن لم يتسنى لى الاطلاع عليه.

٢ ــ مع القاضي أبي بكر ابن العربي – سعيد أعراب: دار الغرب الإسلامي – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٨٧م.

٣ ــ أحكام القرآن ، أبو بكر محمد بن عبد الله، تحقيق علي محمد البجاوي، (بيروت: دار الجيل، د.ت)،

٤ ــ عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، أبو بكر محمد بن عبد الله، ط١، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م)

ومما يؤكِّد على أهميَّة عمل ابن العربي وتميُّزه : أنَّه جاء عملاً مخالفًا لكلّ أنماط الكتابة السَّائدة ، والتي كانت تنحصر - في الغالب - في كتابة التَّقارير العسكريَّة من قادة الجيوش الإسلاميَّة عن طبيعة البلاد المراد فتْحها ، أو مشاهدات الجغرافيِّين ، ومعاينتهم لطبيعة الأرْض ، ووصف تضاريسها ومظاهرها الطبيعيَّة في البلدان المختلفة ، أو الحكايات العجيبة والغريبة الَّتي شاهدها بعض التجَّار المغامرين في أسفارِهم ورحلاتِهم ، أو كتُب المسالك والممالك ، وكتب البلدان ، وكتب فضائل المدُن ، وكتب الخطط والآثار وغيرها . وتلك الكتابات وافقت طبيعة المهمات المنوطة بأصحابها ، أما ابن العربى فقد دون رحلته على هيئة مذكَّرات يوميَّة ، ووصف مشاهداته وانطباعاته ، فى مدونته فى قالب أدب الرحلة الذى اصطلحنا عليه .

دوافع رحلته

لقد عقد ابن العربى العزم منذ يفاعته أن يرحل فى سبيل تحصيله العلم صحيح أن هناك دواعى سياسية أخرى يذكرها كانت سببا للرحلة وهو أن أباه قد أوفده يوسف بن تاشفين ، إلى الخليفة المستظهر العباسى لأخذ البيعة له "ولمَّا مُحِي رسْم الخلافة وتعطَّل دَسْتُها، وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسُف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العُدوتين، وكان من أهل الخير والاقتداء، نزعت همَّته إلى الدُّخول في طاعة الخليفة، تكميلاً لمراسم دينِه،

فخاطَب المستظهِر العبَّاسي[1]، وأوفد عليْه ببيعتِه عبد الله بن العربي، وابنَه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية، يَطلُبان توليَتَه إيَّاه على المغرب وتقليده ذلك، فانقلبا إليْه بعهد الخلافة له على المغرب"[2] . وهى حجة نُصِح بها ، بعد أن أصبح مقامه وأسرته فى اشبيلية مهددا ،فيصف ابن العربى يوم خروجه وأبيه بأنه من الأيام الصعبة التى مرت به يصفه ابن العربي بأنَّه أعجب يوم مرَّ عليه [3] ويصف ساعة خروجُهم من إشبيليةَ فيقول: "خرجْنا والأعداء يشمتون بنا" [4] ، "خرجْنا مكرمين، أو قُلْ: مُكْرَهين، آمنين، وإن شئت خائفين"[5] .

غير أن ما علق فى نفسه من طلب العلم هون كثيرا من الأمر عليه ،، يقول "وكان الباعث على هذا التشبُّث – مع هول الأمر – همَّة لزمت ، وعزمة نَجمت ، ساقتْها رحمة سبقتْ ، ولقد كنت يومًا مع بعض المعلِّمين، فجلس

١ـأبو العباس أحمد المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله من خلفاء الدولة العباسية. بويع بالخلافة في منتصف محرم سنة ٤٨٧هـ بعد أبيه ، وكانت مدة خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً توفي في ٢٣ربيع الآخر سنة ٥١٢هـ ، البداية والنهاية / ابن كثير ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي دار هجر ج١٢ ص١٧٩وما بعدها.

٢ـ مقدمة ابن خلدون – تحقيق علي عبدالواحد وافي – ج٢ – ص٦١٦ وما بعدها – مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م – القاهرة.

٣ ـ قانون التَّأويل ـ مصدر سابق – ص٧٥

٤ ـ المصدر السابق ص٧٥

٥ ـ المصدر السابق ص٧٧

إلينا أبي - رحمة الله عليه - يُطالع ما انتهى إليه علمي .... فدخل إلينا أحد السَّماسرة وعلى يديه رزمة كتب... فإذا بها من تأليف السمناني شيخ الباجي، فسمعتُ جَميعَهم يقولون: هذه كتُب عظيمة، وعلوم جليلة، جلَبها الباجي من الشَّرق، فصدعتْ هذه الكلمة كبدي، وقرعت خلدي، وجعلوا يُوردون في ذكره ويُصدرون، ويحكون أنَّ فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون... ونذرت في نفسي طيَّة: لئن ملكت أمري لأهاجرنَّ إلى هذه المقامات، ولأفدنَّ على أولاء الرِّجالات، ولأتَمرسنَّ بما لديْهم من العقائد والمقالات، واستمررْتُ عليْها نيَّة، واكتتمتُها عزيمة"١ .

ولعل اطلاعنا على الرحلة يدلنا على صدق العزيمة ، فالرجل قد جعل العلم وتحصيله همه الأول من رحلته ، في كل بقعة ارتادها ومحلة حلها كان العلم طلبته ، والمعرفة هدفه وغايته ، وسوف يتضح لنا ذلك جليا في الصفحات القادمة .

١ ـ أبو بكر بن العربي: قانون التأويل - ص٧٥ وما بعدها.

المبحث الثالث :

الطابع العلمى لرحلة ابن العربى

الرحلة لطلب العلم من الأمور التى حث عليها ديننا الحنيف ورغب فيها ، حيث جعل طلب العلم "فريضة على كل مسلم [1]" يشدون الرحال فى طلبه "ولو في الصين" [2] ، وهو مطلب لا يتوقف عند سن بل "من المهد إلى اللحد" ولأجله كرم الإسلام العلماء فجعلهم "ورثة

١ــ سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني : دار الفكر/ بيروت ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، باب (فضل العلم والعلم والعلماء) ج١ص٨١

٢ ـ حكمة أو قول جرى مجرى المثل وليست بحديث على أصح الأقوال

الأنبياء"[1] واستحقوا لأجله الثواب من الله في الآخرة تصديقا لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : عن أبى هريرة – رضي الله عنه – : قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : «مَن سَلَكَ طريقا يَلْتَمِسُ فيه علما : سهَّلَ الله له طريقا إلى الجنة». ٢ ، وقوله أيضا :(من خرج طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع)٣ ، وقد كان ديدن الصحابة والتابعين قطع المفاوز الصعبة والفيافي الوعرة من أجل تحصيل مسألة أو فهم معنى آية أو حديث، وصارت سننا من لدنهم ، يرحل أحدهم من المدينة إلى الشام ٤ ، أو إلى مصر ؛ ليأخذ الحديث عن أخيه ، أو ليتوثق من رواية حديث سمعه . وصنيع البخاري ومسلم وأصحاب كتب السنة غير خاف علينا في هذا الصدد.

---

١ – من حديث طويل لأبى الدرداء منه (..... الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا ، وَلاَ دِرْهَمًا ، وَلَكِنَّهُمْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِالْعِلْمِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظِّهِ .....) سنن ابن ماجة ، مصدر سابق، باب (فضل العلم والعلم والعلماء) ج١ص٨١

٢– أخرجه الترمذي. وفي رواية أبي داود : «مَا مِن رجل يسلك طريقا ، يعني : يطلب فيه علما ، إلا سَهَّلَ الله له طريقا إلى الجنة ، وَمَن أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ : لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». جامع الأصول في أحاديث الرسول : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفى : ٦٠٦هـ) ، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط – مكتبة دار البيان ، الطبعة : الأولى ج٨ص٧

٣– أخرجه الترمذي في سننه ٢٩/٥ عن أنس بن مالك ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، المصدر السابق .

٤– انظر على سبيل المثال ما أخرجه أحمد في مسنده ٤٩٥/٣ في رحلة جابر بن عبد الله بن أنيس بالشام ؛ ليتوثق من حديث سمعه عنه .

قيل لأحمد بن حنبل: رجل يطلب العلم يلزم رجلا عنده علـم كثيـر، أو يرحل؟ قال: يرحل، يكتب عن علماء الأمصار، فيشـافه النـاس ، ويـتعلم منهم.١ ، و يقول ابن خلدون :٢" إن الرحلة فـي طلـب العلـوم ولقـاء المشيخة مزيد كمال في التعليم ، والسبب فـي ذلـك أن البشـر يأخـذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المـذاهب والفضـائل: تـارة علمـاً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة... فلقاء أهل العلوم ، وتعدد المشايخ ، يفيده تمييز الاصطلاحات ، بما يراه من اختلاف طرقهم فيهـا.. فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقـاء المشـايخ ومباشرة الرحال ".

وبما أن العطاء الحضاري الإسلامى الأول كان مركزه المشـرق ؛ فـلا عجب إذن أن تأتي الرحلات من المغرب والأندلس إليه ، فقد كان المغـرب والأندلس في أول الأمر يعتمد كثيرا على علوم المشرق ، بوصفها الأصـل الذي يجب أن تؤسس عليه علومهم ومعارفهم ، ولأن الغرب بعـد دخـول الإسلام إليه كانت نظرته إلى المشرق بوصفه بؤرة الحضـارة الإسـلامية ومركز ثقافتها ، فلم يكن الشرق بالنسبة لهم قبلتهم الدينية التـى يحجـون إليها فحسب ، بل وقبلتهم العلمية التى يقصدونها ، صـحيح أن الـرحلات الأولى للأندلسيين والمغاربة نحو المشـرق هـي الـرحلات الدينيـة لأداء

١ــ انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين طبعة بولاق ١/١٧٥.

٢ ــ مقدمة ابن خلدون ، – تحقيق علي عبد الواحد وافي – ج٣ – ص٢٢٦ ومـا بعدها – مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م – القاهرة. ،الفصل الحادى والأربعون

فريضة الحج ، إلا أن الحج وهو فريضة يتقـرب بهـا إلـى الله سـبحانه وتعالى، كان كذلك المؤتمر العلمى العالمى يلتقى خلاله العلماء وطلبة العلـم من أقطار العالم فيفيدون ويستفيدون علماً ومعرفةً ويتعرفون علـى أحـوال المجتمع الإسلامي.وما أن حل القرن الثالث الهجري ، حتى غـدت الرحلـة العلمية لدى الأندلسيين هدفا يسعون إليـه ، وأصـبحت الرحلـة العلميـة ضرورة لازمة ، يحصل فيها الطالب مالا يجده فى موطنه ، ويلتقى بالعلماء المشهورين في مختلف الاختصاصات، وأصبحت الرحلة فضلا عن الرصـيد المعرفي الذى يحصله منها ، تمثل شهادة توثق علميته وتشهد له بـالتفوق والسبق ، وبها ينال الحظوة عند خلفاء بني أمية، فيوكلون إليـه أعمـالا مرموقة في الدولة مثل الوزارة، القضاء، الكتابة، الحسبة...إلـخ ، وهكـذا أصبحت الرحلة العلمية هدفا ، لمحبى العلم والطامحين إلى الرقى .

يؤكد ابن العربى على طبيعة رحلته العلمية حين يذكر السبب الأهـم لهذه الرحلة وهو طلب العلم ، وقد أخلص ابن العربى للسبب الذى وضـعه نصب عينيه وهو يغادر أشبيلية فهو لم يضع الوقت واتجه فى كـل بقعـة حطت رحلته فيها إلى كبار شيوخها وعلمائها يستزيد من علمهم ، ويضيف إلى رصيده المعرفى ، حتى نجد جلة الرحلة فى الحديث عن هؤلاء العلمـاء ووصف مجالسهم وما يدور فيها ، وذكر لأبرز المسـائل العلميـة الجـادة والطريفة ، وطرفا من مناظراته ووصفا للعلوم التى درسها وتلقاها ، منـذ محطته الأولى فى رحلته القيروان "فلمَّا لمح لـي هـذا الكوكـب بطريقـة القيروان ، واستنارتْ لي فيها بنوع من البرهان، واستبرأتُها بواضـح مـن الدلالات، غضّ النبات والأفنان ، قلت: هذا مطلبي، فأخذت في قراءة شـيءٍ

من أصول الدين، والمناظرة فيها مع الطَّالبين، ولزمت مجالس المتفقِّهين"١ ويذكر أن الأدب فيها "على حالة وسطى"٢

ويصف ابن العربي حالة الركود العلمي لعُلماء مصر، والظّروف السيِّئة التِي تمرُّ بها البلاد في ذلك الوقت قائلاً: "ألفيْنا بها – أي مصر – جماعة من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين، والسلطان٣عليهم جريٌّ، وهم من الخمول في سرب خفِي، ومن هجران الخلْق بحيث لا يرشد إليهم جريء، لا ينبِسون من العلم ببنت شفة، ولا ينتسب أحدٌ منهم في فنّ إلى معرفة، بله الأدب.." ٤ .

إلاَّ أنَّ أبا بكر بن العربي كان يتردَّد على مجالس القرَّاء، ويبدي إعْجابَه بطريقة القراء المصريين فيقول: "وقَدْ سَمِعْت تَاجَ القُرَّاءِ ابْنَ لُفْتَة بِجامِعِ عَمْرو يَقْرَأُ: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ} [الإسراء: ، فكَأَنِّي ما سَمِعْت الآيَةَ قَطُّ، وسَمِعْت ابْنَ الرَّفَّاء – وكَانَ من القُرَّاءِ العظَام – يَقْرَأُ، وأنَا حَاضِرٌ بالقَرافَةِ: {كهيعص} فكَأَنِّي ما سَمِعْتها قَطُّ، .... والقُلُوبُ تَخْشَعُ بالصَّوْتِ الحَسَنِ كَما تَخْضَعُ لِلوَجْهِ الحَسَنِ، وما تَتَأَثَّرُ به القُلُوبُ في التَّقْوَى فهُوَ أعْظَمُ في الأَجْرِ وأقْرَبُ إلى لِينِ القُلُوبِ وذَهابِ القَسْوَةِ منْها" ٥

---

١ ــ المصدر السابق ص٨٤

٢ ــ المصدر السابق ص٨٤

٣ــ هو معد بن الظَّاهر بن الحاكم بأمر الله، خامس خلفاء مصر من بني عبيد.

٤ ــ قانون التأويل – ابن العربي ، مصدر سابق ، ص٨٩

٥ ــ أحكام القرآن، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ــ ابن العربي ــ دار الكتب العلمية، ج٤، ص٤ وما بعدها، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٣م.

وفي مصر تدرَّب أبو بكر على الجدل ، وناظر الشِّيعة والقدريَّـة، ويصـف هذه الطَّوائف قائلاً: "أمَّة غلب عليْها سوء الاعتقاد، ونشئت من غير فطـم بلبن العناد، واستولى اليأس منهم على مـا هـم فيـه مـن الفسـاد" ١. فيقول: "ثم رحلنا عن ديار مصر إلى الشام، وأملنا الأمـام، فـدخلنا الأرْض المقدَّسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدرُ المعرفة، فاستنرتُ به أزْيـد من ثلاثة أعوام... وقُلْت لأبي: إن كانت لك نيَّة في الحجّ فـامض لعزْمِـك، فإنِّي لست برائمٍ عن هذه البلدة حتّى أعلم علْمَ مَـن فيهـا، وأجعـل ذلـك دستورًا للعلم، وسلَّمًا إلى مراقيها، فسَـاعدني حـين رأى جِـدِّي، وكانـت صحبتُه لي من أسباب جَدّي.."٢.

ولقد طالت إقامة ابن العربي ببيت المقدس أربعين شهرًا – أي: حوالي ثلاثة أعوام أو يزيد – حيث وجد أبو بكر بن العربي القُدس بيئـة صـالحة للتعلّم والتحصيل ، كما وجد بِها مـدارس للشّـافعية والحنفيَّـة ، كمـا أنَّ الشيوخ والعلماء يعقدون مجالس العلم والمناظرة بين أصـحاب المـذاهب المختلفِة، والمناظرة بين أصحاب الديانات المختلفة، لقد أغْراه هـذا الجـوُّ العلمي في القدس، فأقبل على علوم عصْرِه يلتهمُها، فاستوفى علم الكـلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، الأمر الَّذي من أجله اتَّخـذ قـرارَ تأجيـل رحلتـه إلـى الحـج، رغـم إلحـاح والـده عليـه. وفي رحاب المسجِد الأقصى كان أبو بكر يقْضِي معظمَ أوقاته، يظلُّ نهـارَه

---

١ ــ قانون التأويل – ابن العربي ، مصدر سابق ، ص٩٠

٢ ــ المصدر السابق ص٩٠

في الدرس والتحصيل ، ويبيت ليلَه في التهجُّد والعبادة ، وحرص ابن العربي على طلب العلم، واستيفاء تحصيله العلمي من شيوخها، فحرص على لقاء جماعة من العُلماء والمحدِّثين الفقهاء الَّذين أخذ عنهم، وتتلمذ على يد شيخِه الأندلسي أبي بكْر الفهريِ الطرطوشي (٤٥١ - ٥٢٠هـ) ، ثم غادر إلى دمشق فوصلها في الشُّهور الأولى من سنة ٤٨٩هـ

لم يطل المقام بابن العربي في دمشق ؛ لأنَّ الحركةَ العلميَّة فيها تكاد تكون متشابهة مع الحركة العلميَّة التي في القدس، فدمشق لن تضيفَ إليه جديدًا، فنوى الرَّحيل إلى بغداد ، في شعبان سنة ٤٨٩هـ، وأهلَّ هلال رمضان والقافلة على مشارف العراق ، فلمَّا دخل دار السَّلام ، كان أولَ شيء يفعله هو السُّؤال عن حلقات أهل العلم، فدلّوه على المدرسة النظاميَّة، ولكنَّ إقامة ابن العربي لم تطُل بالعراق أكثر من ثلاثة أشهُر، حيثُ نوى أداء فريضة الحجّ هذا الموسم ، وابنُ العربي في مكَّة والمدينة لا ينسى طلبَه للعلم، فيواصل ابن العربي طلبَ العِلْم ، على يد مشايخ وعلماء مكَّة والمدينة، فجلس إليهم مدَّة ، ثم "عاد إلى بغداد ثانية ، وصحِب بها كثيرًا من العلماء والأدباء ، فأخذ عنهم وتفقَّه عندهم، وسمع العِلْم منهم ".١" ثمَّ ارتَحل ابن العربي راجعًا إلى بغداد مرَّة ثانيةً، بعد أدائِه فريضة الحجّ ، وأقام فيها بعض الوقت، "وصحب بها كثيرًا من العلماء والأُدباء،

---

١ ـ نفح الطيب - ج٢ - ص٢٩ وما بعدها.

فأخذ عنهم وتفقَّه عندهم، وسمع العلم منهم"١ ، فتتلمَذ على يـد التبريـزي العالم اللغوي (٤٢١ – ٥٠٢هـ)، وأبي بكر الشاشـي الشافعي (٤٢٩ – ٥٠٧هـ)، واستمع إلى دروس أبي حامد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، في المدرسة النظاميَّة، وقد التقى به برباط أبي سعيد بمدينة السلام، في جمادى الآخرة سنة ٤٩٠هـ، ولا يُخفي ابن العربي فرحتَه بلقاء الإمـام الغزالـي، وكان يفتخر بالأخذ عنه، فيقول: "ورد علينا دَانِشْمَنْد٢ فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظاميَّة، معرضًا عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشـيْنا إليه، وعرضنا أمنيَّتنا عليه، وقلت له: أنتَ ضالَّتنا التي كنَّا ننشد، وإمامُنـا الَّذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصِّـفة ، .... فقصدت رباطَه، ولزمـتُ بسـاطه، واغتنمـت خلْوتـه ونشـاطه"٣.

غادر ابنُ العربي بغداد أواخرِ سنة ٤٩١هـ، بعـد أنِ اسـتكمل تحصـيلَه العلمي، فمرَّ على دمشق، والقدس، فجدَّد أبو بكر العهْد بشيوخه في الشَّـام، وطاف على مزارات بيت المقدس.

ثم ينتقل إلى الإسكندرية أوائل سنة ٤٩٢هـ، ونزل على أستاذه أبـي بكر الطرطوشي، الَّذي انتقل هو الآخرُ إلى ثغر الإسكندريَّة ليتَّخذه مقرًّا لـه، وكان الصليبيُّون قدِ استولَوا على بيت المقدس في شعبان سنة ٤٩٢هـ – ١٠٩٨م، وقد حرَص بها على لقاء جماعةِ من المحـدِّثين ، فكتـب عـنهم

---

١ ــ نفسه.

٢ ــ دانشمند: كلمة فارسية تعني العارف، أو الحكيم العلامة، والمقصود بها الإمام الغزالي.

٣ ــ ابن العربي: قانون التأويل – ص ١١١ وما بعدها

واستفاد منهم وأفادَهم.

وكانت وفاة والده بالإسكندرية في محرَّم سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م، أحد الأسباب القويَّة، الَّتي دفعته للرجوع إلى وطنه، في نفس العام ، بعد رحلة استغرقتْ ثَمانية أعوام١، قضاها ابن العربي، متجولاً في بلاد المشرق الإسلامي، طالباً للعلم تارةً، وحاجًّا تارة، وسائحًا تارة أخرى

" وقدم إلى بلده إشبيليَّة، بعلم كثير لم يدخلْه أحد قبله، ممَّن كانت له رحلة إلى المشرق٢ "فحلَّها والنفوس إليه متطلِّعة، ولأنبائه متسمعة ٣

وهكذا نجد الرحلة مطلوب صاحبها الأول والأثير لديه هو لقاء العلماء فى كل مكان رحل إليه ، والنزعة العلمية عنده لم تفارقه ، ففى أثناء موسم الحج ، كان طلب العلم دعوته الأثيرة كلما شرب من ماء زمزم ، فشغفه بطلب العلم أغناه عن كل مطلب سواه يقول ابنُ العربي: "لقد كُنْت بمكَّة مُقيمًا في ذي الحِجَّة ، سنَةَ تِسْعٍ وثَمانِينَ وأرْبعمائَة، وكُنْت أشْرَبُ ماءَ زَمْزَمَ كثيرًا، وكُلَّما شَرِبْته نَوَيْت بِه العِلمَ والإيمانَ، حتَّى فَتَحَ اللَّه لي بَرَكَتَه في المِقْدارِ الَّذي يَسَّرَهُ لي مِن العِلمِ، ونَسِيت أن أشْرَبَه لِلعَمَلِ، ويا لَيْتَنِي شَرِبْته لهُما حتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عليَّ فِيهِما، ولمْ يُقَدَّرْ، فكانَ صَغْوِي إلى العِلمِ

---

١ ــ ابن العربي: الأحكام – ج ٤ – ص٩.

٢ ــ لقد استغرقت رحلة ابن عربي ثمانية أعوام حتى وفاة والده، وحوالي عشر سنوات حتى عودته إلى إشبيليَّة، حيث ابتدأ رحلتَه في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥هـ – ١٠٩٢م، وكانت عودته سنة ٤٩٥هـ – ١١٠٢م.

٣ ــ لمقري: نفح الطيب – ج٢ – ص ٢٩ وما بعدها

أكْثَرَ مِنهُ إلى العَمل"١ ولم يفته وهو يشهد المشاعر فى الحج أن تغلب عليه حاسته العلمية فيسجل لنا أن الشيعة من العراق سنة ٤٨٩هـ قد تركوا الإحرام من ميقات ذى عرق ، ويعلل لذلك بأن "الشيعة لا يُحرمون منه"٢

ومنَ المشاهد المهمَّة التي سجَّلها ابن العربي أثناء إقامته بمكَّة في موسم الحجّ: مشهد مبيت الحجَّاج بعرفةَ ليلةَ عرفةَ، قال: "مررتُ من ذات عرق، فألفيت الحاجَّ كلَّه بائتًا بعرفة ليلة عرفة"٣ . "وهذا بخلاف السنَّة النبويَّة؛ إذ ينبغي أن يكونَ مبيت الحاجِّ في تلك الليلة بمنى لا عرفة" ٤ ، "وليس على مَن فعل ذلك شيء ، ولكنَّه ترك فعل رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – ولقد خاب مَن تركه"٥ ..

ولم يفته أن يسجل الحالة التعليمية القائمة بمكة ، وحرص على وصف نُظم التعليم ووسائله في مكَّة ، وأبدى إعجابه الشَّديد بتلك الوسائل ، كما أثنى على الطَّريقة المتَّبعة في التَّعليم ، والَّتي تقوم على أساس التدرُّج في اكتساب العلوم.فيقول: "كُنْت أحضرُ عِنْدَ الحاسبِ بِتِلْكَ الدِّيارِ المُكَرَّمةِ، وهُوَ يَجْعَلُ الأعْدادَ على المُتَعَلِّمينَ الحَاسِبِينَ، وأفْوَاهُهُم مَمْلُوءةٌ مِن الماءِ، حتَّى إذا انْتَهَى إلْقاؤهُ، وقالَ: ما مَعَكُمْ؟ رَمَى كُلُّ واحدٍ بِما في فَمِه، وقالَ ما

---

١ ــ ابن العربي: أحكام القرآن – ج٣ – ص٩٨.

٢ ــ أبو بكر بن العربي: عارضة الأحوذي – ج٤ – ص٤٩ وما بعدها.

٣ ــ المرجع السابق – ج٤ – ص١١٠

٤ــ محمد أحمد العقيلي: "قبيلة بني شعبة" مجلة العرب – ج١١، ١٢ – ١٩٧٤م – ص٨٩٧ وما بعدها – الرياض – دار اليمامة.

٥ ــ أبو بكر بن العربي: عارضة الأحوذي – ج٤ – ص١١٠

مَعَهُ لِيُعَوِّدَهم خَزلَ اللِّسَانِ عَن تَحْصِيلِ المَفْهُومِ عَن المَسْموعِ، وللقَوْمِ فـي التَّعلُّمِ سيرَةٌ بَديعةٌ، وهيَ أنَّ الصَّغِيرَ مِنْهُم إذا عَقَلَ بعَثُوهُ إلى المكتب، فَـإذا عَبَرَ المَكتبَ أخَذَهُ بتَعْليم الخَطِّ والحِسَاب والعَربيَّة، فإذا حَذَقَهُ كُلَّهُ أوْ حَـذَقَ مِنْهُ مَا قُدِّرَ لَه، خَرَجَ إلى المُقْرِئِ فَلَقَّنَهُ كِتَابَ اللَّه، فَحَفظَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ رُبْـعَ حزْبٍ، أوْ نِصْفَه، أوْ حِزْبًا، حتَّى إذا حَفظَ القُرْآنَ خرَجَ إلى مَا شَاءَ اللَّهُ مِـن تَعْلِيمِ العِلمِ أوْ تَرْكِه، ومنْهُم – وهُم الأكْثَرُ – مَنْ يُؤَخِّرُ حِفْظَ القُرْآنِ، ويـتَعَلَّمُ الفِقْه والحَديثَ، وما شَاءَ اللَّهُ، فَرُبَّما كانَ إمامًا، وهُوَ لا يحْفَظُه، وما رَأَيْـت بعَيْنَي إمامًا يَحْفَظُ القُرْآنَ، ولا رَأَيْت فَقِيهًا يَحفظُه إلاَّ اثْنَيْنِ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُـوا أنَّ المَقْصودَ حُدُودُه لا حُرُوفُه، وعُلِّقَت القُلُوبُ اليَـوم بِـالحُرُوفِ ، وضَـيَّعُوا الحُـــــدُودَ" ١.

ومن فوائد القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى نذكر علـى سـبيل المثال بعض ما حوته رحلته من فوائد علمية لنؤكد الطابع العلمـى لرحلـة ابن العربى ، وسوف نحاول أن ننوع فى تلك الفوائد

فائدة لغوية

ومن فوائد ابن العربي رحمه الله تعالى أنه قال : كنت بمجلس الـوزير العادل أبي منصور ابن جهير على رتبة بيناها في كتاب الرحلة ، للترغيـب في الملة فقرأ القارئ { تحيتهم يوم يلقونه سلام }[٢] وكنت في الصف الثاني من الحلقة بظهر أبي الوفاء علي بن عقيل إمام الحنبلية بمدينـة السـلام ،

١ ــ المرجع السابق – ج٤ – ص٣٤٩.

٢ ــ [الأحزاب: ٤٤]

وكان معتزلي الأصول ، فلما سمعت الآية قلت لصاحب لي كان يجلس على يساري: هذه الآية دليل على رؤية الله في الآخرة : فإن العرب لا تقول : لقيت فلانا إلا إذا رأته، فصرف وجهه أبو الوفاء مسرعاً إلينا، وقال ينتصر لمذهب الاعتزال في أن الله تعالى لا يرى في الآخرة: فقد قال الله تعالى:{ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه}[1] وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى في الآخرة، وقد شرحنا وجه الآية في المشكلين، وتقدير الآية: فأعقبهم هو نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، فيحتمل ضمير يلقونه أن يعود إلى ضمير الفاعل في (أعقبهم) المقدر بقولنا هو، ويحتمل أن يعود إلى النفاق مجازاً على تقدير الجزاء، انتهى[2].

مسألة فقهية

ومنها قوله: سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له، ولا مالية فيه، ولا منفعة مبتوتة عنيه، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها، فلذلك تبعها، كما لو أكل رجل تمراً في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها، وهذه من البدائع، انتهى[3].

---

١ ــ [التوبة: ٧٧]

٢ ــ نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مصدر سابق ، ج ٢ص٣٩.

٣ ــ المصدر السابق ج٢ ص٤١

مناظرة

يقول : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حديث أبي ثعلبة المرفوع[1] إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم ، فقالوا: بل منهم ، فقال: بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون عليه أعواناً ، وتفاوضت كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام، وعضدوا الدين وأقاموا المنار، وافتتحوا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح : لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[2] ، فتراجعنا القول ، وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح ، وخلاصته: أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم

---

١ ــ ذكره أبو جعفر ين جرير الطبرى فى جامع البيان ــ عن موسوعة جوامع الكلم ، ط دار هجر.

٢ ــ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر ، الناشر : دار طوق النجاة
الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ ، نصه ، حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ الْأَعْمَشِ قَالَ سَمِعْتُ ذَكْوَانَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ تَابَعَهُ جَرِيرٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ دَاوُدَ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ وَمُحَاضِرٌ عَنْ الْأَعْمَشِ

فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه ، وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام ، صعب المرام ، لغلبة الكفار على الحق ، وفي آخر الزمان أيضاً يعود كذلك ، لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان ، وظهور الفتن، وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق، وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب ، كما قال صلى الله عليه وسلم[1]: لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه وقال صلى الله عليه وسلم: بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ . فلا بد والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الإسلام إلى واحد، كما بدأ من واحد، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكناً منه معاناً عليه بكثرة الدعاء إلى الله تعالى، وذلك قوله: لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً حتى ينقطع ذلك انقطاعاً باتاً لضعف اليقين وقلة الدين، كما قال صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله يروى برفع الهاء ونصبها ، فالرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن المنكر

---

١ ـ المصدر :أحكام القرآن – تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ـ ابن العربي ـ دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٣م. ج٢٠ :ص٣٢٠

يقول: أخاف الله، حينئذ يتمنى العاقل الموت، كما قال صلى الله عليه وسلم:[1] لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني كنت مكانه انتهى[2]

ومن دقة ملاحظاته :

قوله: إنه كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأي إمام ، يعرف بابن عطاء، فتكلم يوماً على يوسف وأخباره، حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال: يا شيخ، يا سيدنا، فإذن يوسف هم وما تم، فقال: نعم، لأن العناية من ثم، فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلم وفطنة العامي في سؤاله، والعالم في اختصاره واستيفائه، ولذا قال علماؤنا الصوفية: إن فائدة قوله تعالى: (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما)[3] إن الله تعالى أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة. انتهى[4].

نوادر ولمح

يقول : ومن نوادر أبي الفضل الجوهري ما أخبرنا عنه محمد بن عبد الملك الواعظ وغيره أنه كان يقول: إذا أمسكت علاقة الميزان بالإبهام

١ـ صحيح البخارى ج٠ ص٥٨

٢ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مصدر سابق ، ج٢ ص٣٧

٣ ـ [يوسف: ٢٢]

٤ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مصدر سابق ، ج٢ ص٤١

والسبابة، وارتفعت سائر الأصابع كان شكلها مقروأ بقولك الله، فكأنها إشارة منه سبحانه في تيسير الوزن كذلك إلى أن الله سبحانه مطلع عليك، فاعدل في وزنك، انتهى[1].

ومنها: وكان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الإمام دانشمند من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية، فربك أعلم به، ومع طول الصحبة عقلني الحياء عن سؤاله، وبودي اليوم لو كاشفته عن حاله، انتهى.

ومن فوائده: أخبرني المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ إليه سحرنا، قال: هكذا قالوا، والله تعالى أعلم بما نقلوه[2]. وهذه نماذج لما عمرت به رحلة ابن العربى من مسائل وفوائد علمية ، عبرت عن الطابع العلمى للرحلة ، كما أكدت التوجه العلمى لابن العربى فى رحلته.

إلا أن مفردات الرحلة ؛ تؤكد أنه مولع بالمعرفة فى مفهومها العام ، وهو ما تحققه الرحلة لمن أراد أن يستثمر كل شىء فيها ، فابن العربى قد تجول فى المدن والأمصار ؛ وبخاصة تلك التى طال مكثه فيها كالقدس ، فزار قبور الأنبياء ، وبعض الآثار الدينية وغيرها ، فوصف محراب داوود عليه السلام[3] ، وصخرة المائدة[4] ،ومسجد عمر[1] ، وزار قبر يونس[2]

---

١ ــ المصدر السابق ، ج٢ ص ٤٢

٢ ــ المصدر السابق ، ج٢ ص ٤٣

٣ ــ أحكام القرآن ابن العربى ، ج٢ ص١٨٨

٤ ــ أحكام القرآن ابن العربى ، ج٢ ص١٨٨

ويوسف[3] ، كم تجول فى ربوع القدس وشرق الأردن ، وصور لنا حيـــواتهم وعاداتهم يقول (ودخلت نيفا على ألف قرية من برية ، فما رأيت أصـــون عيالا ، ولا أعف من نساء نابلس ، فإنى أقمت فيها أشـــهرا ، فمـــا رأيـــت امرأة فى طريق نهارا إلا يوم جمعة ، فإنهن يخرجن حتى يمتلىء المســـجد منهن ، فإذا قضيت الصلاة وانقلبن إلى بيوتهن ، لم تقع عينى على واحـــدة منهن إلى الجمعة الأخرى ،وسائر القرى ترى نســـاءها متبرجـــات بزينـــة وعطلة ، متفرقات فى كل فنن وعضلة)[4].

كما ضمن رحلته وثائق سياسية كرسالة أبيه إلى الخليفـــة المســـتظهر العباسى

يشرح فيها دور المرابطين وأعمالهم فى خدمة الإسلام ، والرسالة تقع فى خمس وسبعين سطرا ، وهى مؤرخة برجب س ٤٩٠هـ وقد افتتحه – على عادتهم – بالدعاء والتمجيد لمقام الخلافة ، ويذكر في هـــذا الصـــدد ، الظروف التي جعلته يتجسم الصعاب هو وابنه، في ســـبيل واجـــب البيعـــة لأمير المومنين، وهو أمر محتم عل كل مسلم ، ومن ثم يخلص إلى الإشادة بأعمال الأمير يوسف بن تاشفين وما يقوم به في الغرب الإســـلامي، مـــن دعوة للخلافة العباسية، وفي نهاية الخطاب ، يستأذن الخليفة في صـــدوره هو وابنه إلى الوطن، بعد أن ظلا فـــي كنـــف الخلافـــة – مـــدة غـــامين –

---

١ ــ عارضة الأحوذى ــ أبو بكر بن العربى ،ج٩ ص٤٦

٢ ــ أحكام القرآن ابن العربى ، ج٢ ص١٩٧

٣ــ عارضة الأحوذى ــ أبو بكر بن العربى ،ج٤ص٢٧٤

٤ ــ أحكام القرآن ابن العربى ، ج٢ ص١٦٦

مشمولين بالبر والإحسان، والرعاية والإكرام ، ويستصدر أمر الخليفة إلـى الأمير، في أن يرع جانبهما، " ... ويظهر مزية وفادتهما .. ويقربهما إليـه، ويثبت رسمهما في ديوانه، .. ويبقى ذلك لهما ولعقبهما مؤيدا، وعلى مـر الأيـام مؤكـدا ومخلـدا ، كما ضمنها مرسوم الخليفة فى رجب ٥٩١هـ والمتضمن تقبيد الإمـارة ليوسف بن تاشفين ، التقليد الرسمي للأمير ابن تاشفين .. وهـذه أمثلـة فحسب١ ، كما سجل ثورة ثائر على وال فحاصره الوالى وقاتله ، ويعجـب ان الناس على حالها منصرفة ليعها وشرائها وحوائجها [٢]. وهكذا أن رحلة ابن العربى وإن تميزت بتوجهها العلمى إلا أن صاحبها يروى لنا تفصـيلات ومشاهد وأحداث لجوانب أخرى من الحياة ، وهـى وغـن بـدت للنظـرة السطحية بعيدة عن مهمة التحصيل العلمى ، فإت التظرة المتعمقة تجد فـى معاينة أحداث الحياة ومتابعتها خبرة مهمة ، وإضافة معرفية لا تقـل عـن المعرفة بالمطالعة والاستذكار إن لم تكن تدانيها

---

١ ــ يعني بهذا أن المكاتبات الرسمية في المشرق، تختلف في كثير من صورها عن مكاتبات أهل المغرب، وقد توسع القلقشندي في هذا الموضوع، وأوضح أساليب كل، وال أن أول، من كتب في هذا من أمراء الغرب يوسف بن تاشـفين أنظـر صـبح الأعشى ٨/٨.

٢ ــ أحكام القرآن ابن العربى ، ج٢ ص١٨٨

الفصل الثانى

الخصائص الأدبية لرحلة ابن العربى

المبحث الأول :أدبية الرحلة

السفر فى الرحلة سفر قصدى له طابعه الخاص ، بمعنى أن يقصد فيه الرحالة القيام برحلته لسبب أو لآخر فهو سفر اختيارى مقصود ، أما السفر الاضطراري الذى قد يكون بسبب نفي أو ترحيل أو بغرض هجرة أو اغتراب أو سواها فلا يكون رحلة ، ونتاجه الأدبى له اصطلاحات تخصه فهناك أدب المهجر ، أو أدب الاغتراب ، فكل أدب يحمل خصائصه النوعية التى تميزه بسمته الأدبى الخاص به ، وعليه ؛ فأدبية أدب الرحلة ؛ راجعة إلى سمات تميزه بدء من فعل السفر ، الذى لا يقتصر على فعل الارتحال المادى فحسب ، بل لا بد من تدوين الرحلة تدوينا حاملا للخصائص الأدبية ، فملايين الناس ارتحلوا دون أن يدونوا رحالاتهم ، فليس لرحلاتهم منتج أدبى مدون يدخل الرحلة حيز الأدبية ، وهناك مدونات تختلف فى طريقة تدوينها يزخر تراثنا الإسلامى برصيد منها ، لكنها كانت سجلات تاريخية وجغرافية ، كما سجلت عادات الشعوب وطبائع الناس ، فص ت مصادر

معرفية أفادت الكثير من المجالات جغرافيا واجتماعيا وتاريخيا واقتصاديا ...الخ لكنها لم تتسم بالأدبية ، فقد جاءت على هيئة ؛ مدونات تاريخية وجغرافية أو تقارير ، وسجل أو دليل وخلافه ؛ فهى على الرغم من اشتراكها فى عنصر السفر إلا أنها لا تحمل سمات الأدبية ، مما جعلها غير داخلة في أدب الرحلة .

والمتأمل لهذه الصياغة أدب الرحلة يكتشف أن إسناد أدب إلى رحلة ، يدل على العلاقة التى تربط بين المفردتين وأن الصياغة ليست عشوائية بل بها تتحقق أدبية النص التي تسمح لنا بالحديث عنه بوصفه جنسا أدبيا مميزا قائما بذاته يتميز عن غيره من الأجناس ١. إن الرحلة ملتقى الفنون الأدبية تجمع بين شكل القص والخطابية ، وبين الصورة المتنزعة من الواقع او الممتزجة بالخيال الطريف والعجيب ، في أدبية الصيغة تجمع بين الجد والهزل ، نص ممتع ، خلاب ساحر تتلاقح فيها الفنون فتستعير من المسرح الحوار ، ومن القصة الراويِ ، ومن القصيدة الإيقاع والصور، ومن المقامة السّجع.. وأدبية الرحلة تتجلى فى مدونة ابن العربى فيما يلى

فهو يقدم تجربة ذاتية غنية لها طابعها الخاص بالمعنى الأدبي والإنسانى فعلى المستوى الإنسانى نلحظ شغفه الدائم بالعلم وتقديره للشيوخ والعلماء الذى التقى بهم أو تتلمذ عليهم كما نلحظ حميمية طاغية تجاه الأماكن المقدسة التى زارها ولموطنه أشبيلية الذى رأى فى خروجه

---

١ ــ أدبية الرحلة: عبد الرحيم مؤدن ، دار الثقافة، ١٩٩٦.

منها ــ لولا عزما عقده على الارتحال لطلب العلم ــ شقاء وويلة إلى آخر ذلك مما حواه نص الرحلة .

قد حول ابن العربى تجربة السفر الذاتية إلى تجربة موضوعية يعيشها المتلقي ويعايشها ، وينتقل معه إلى عوالم الرحلة وفضاءاتها من خلال صور متلاحقة يرتبط فيها الزمان بالمكان في لقطات رائعة يمتزج فيها الفن بالمعرفة ، فهولا يهدف إلى غاية جمالية مجردة ، بل يهدف إلى تقديم المعرفة مع المحافظة على مستوى التعبير الأدبى الرصين ، والتركيز الدائم على تقريب الصور المجردة إلى ذهن القارئ وتحويلها إلى صور ملموسة بأساليب التشبيه ، والوصف المقارن وضرب الأمثال وخلافه ، فتتحول المرئيات والذكريات إلى كائنات حية قابلة للتفاعل مع المتلقى من خلال صياغة ملائمة يمتزج غيها الذاتى بالموضوعى ، وتتعانق المعرفة مع الصيغ الجمالية والأسلوبية ، واستمع إليه وهو يصف كيف ركب وأبوه البحر من المهدية متَّجهين إلى الحجاز، فتحطَّمت السَّفينة، ونجا أبو بكْر وأبوه من الغرق، وكان خروجُهما بموضع من ساحل طرابلس (برقة)

، تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم، قال: "وقد سبق في عِلْم الله أن يعظم علينا – أي البحْر – بزوله ١ ، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر خروج الميِّت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب من سليم ، ونحن من السَّغب ٢ ، على عطب ، ومن العري في أقبح زي ، قد

---

١ ــ أي بعجائبه.

٢ــ السغب: الجوع مع التعب.

قذَف البحر زقّاق زيت مزَّقت الحجارة هيئتها، وَنَسَّمَتِ الأدهان وَبَرَهَا وجلدتَها، فاحتزمناها أُزرًا، واشتملناها لفافًا ، تمجُّنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطَف أميرُهم علينا ..... فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا" ١. ، فأنت تراه يصور مشهدا يموج بالحركة ، ويضج بالصوت ، ويعمر بتزواج الألوان وتدرجها ، فى جمل معظمها كثيرة كالحركة التى أراد ان يشيعها ابن العربى فى نصه ، وهى مسترسلة ، او مسجوعة سجعات عفوية غير متكلفة ، مما يجعل العبارة تسيل متموجة رقيقة ، تلاطف القلب كما يلاطف الموج الجسد ، وإذا تتبعنا بقية الحدث ، تراه واصفا وسارد ومحاورا فى سلاسة تعبير؛ يحكم لابن العربى ببراعة الصياغة ، وحسن التعبير .

وسف ننتقل إلى مفردات الشكل الأدبى لنرى كيف تحقق الشكل الأدبى لرحلة ابن العربى ، لأنه لا يوجد فن يتميز عن غيره لا يتحقق له القالب الخاص ، و أدب الرحلة له القالب الخاص الذى يميزه عن الفنون المقاربة له كالرواية والمقامة المبنيتين على الخيال . وأبرز ما يميز قالب الرحلة

- الحدث

والحدث فى الرحلة هو حكاية السفر من لحظة الاستعداد ، وتحديد الوجهة ثم الانطلاق فى طريق الذهاب بما يتضمنه من سرد للأحداث ووصف للمشاهدات وما قد تستعيده الخواطر من استطرادات في موضوعات شتى ثم محطات الرحلة، وما تحمله من مشاهدات ومغامرات

---

١ ــ ابن العربي: قانون التأويل – ص٨٥.

ثم الاستعداد للمغادرة ورصد مشاهدات ومغامرات إلى العودة الأحباب والوطن وهذا هو الخط الدرامى الذى ينظم أحداث الرحلة فى تلك القالب الواحد . وإذا طبقنا ذلك على رحلة ابن العربى فإننا نجد تحققها تحققا تاما فحقيقة الرحلة ، وحقيقة أحداثها وشخصياتها ، والتنوع الموضوعى ، ونقطتى البداية والعودة ، كل ذلك يتحقق فى رحلتنا تحققا كاملا ، كما أن ابن عربى شخصية حقيقية ، وتناول أحداثا وشخصيات حقيقية ، ووصف أناسا وأماكن حقيقيين.

كما أن الأحداث فى رحلته تتميز بالثراء والتنوع وتجمع بين السرد والوصف ، والأحداث التى تتخللها هى أحداث قامت بها الذات الكاتبة والأوصاف مرئيات حقيقية شاهدتها فى مسيرة الرحلة سفرا وإقامة من بدء الرحلة إلى نهايتها ، ومع ذلك تتعد الموضوعات داخل الرحلة تبعا لطبيعتها وشخصية القائم بها ومدتها والأماكن التى شملتها إضافة إلى طبيعة أحداث العصر الذى تمت فيه ، والموضوعات فى الرحلة تحتوى على معارف متنوعة : دينية وتاريخية وجغرافية وإثنوغرافية وأدبية... ، تتخللها استراحات للشعر، والطرفة الأدبية ، والنوادر المستملحة . إن البحث في معمارية الرحلة يسمح للباحث بالالتفات إلى خصوبة المتن الرحلي. تلك الخصوبة القائمة على كون الرحلة من النصوص المهجنة أنماط وأجناس من الكتابة الأدبية وغير الأدبية ، حكايات ومرويات وفتاوي وصيغ مقالية ومحطات سردية وأصوات متعددة.. الخ. كل ذلك تحت الهيمنة "الفعلية" لـ"بنية السفر" من حيث كونها حكاية سفر.

- الراوى

وهذه خصوصية لهذا اللون من الكتابة وهو فى رحلتنا ابن العربى ، نجد حضوره من بداية النص إلى نهايته ، وحضوره أمر طبيعى فهو مفجر الأحداث وصاحبها ويأخذ النصيب الأوفر من المساحة القولية في نص الرحلة وصناعة أحداثها ، وتنظيمها في مسار معين ، وقد كشف لنا ابن العربى عن الشخصية المرافقة له وهى شخصية والده ، ولكنه شاء أن يجعله شخصية هامشية لا يقف عندها فى الرحلة إلا فى مفاصل محددة يكون دور هذه الشخصية باهتا وغير مؤثر يفد معه على أمير برقة بعد نجاتهم من الفيئة الغارقة ، ويستأذنه فى البقاء فى القدس مؤجلا الحج ومؤثرا التحصيل العلمى هناك ، كذلك وفاته فى الاسكندرية والتى عجلت بعودة ابن العربى من رحلته ، كذلك يظهر من أول الرحلة مرافقين لم يكن لهم فى أحداثها نصيب

ونراه شخصية تتسم بالعلمية والحرص الدؤوب على المعرفة ، وهذه الروح العلمية جعلته راو يتحرى الدقة فلا يتزيد فيحدد معالم الشخصية تحديدا دقيقا '، ويسرد الأحداث فى غير تزيد اللهم ما تمليه عليه طبيعتها العلمية من التعليق والحكم على ما يرى ويشاهد ، ويستريح بين الأحداث والأوصاف ليقدم معلومات ومعارف ، أو ليسوق شعرا ، وبعد انتهاء الاستراحة يعود إلى مسيرته الأولى ساردا أو واصفا

الضمير في الرحلة ضمير مفرد بالرغم من استعمال الرحالة لضمير الجمع في مواقع محددة. والرحلة، عادة تتأرجح بين الضميرين، كما أن الرحالة رجل حقيقى عاش في فترة زمنية معروفة ، والأشخاص الذين

يتحدث عنهم ، هم أيضا أشخاص حقيقيون عاشوا في زمن معروف ، والأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض. كما أن الرحلة مدونة تدوينا موضوعيا بعيدا عن الفرضية ، وتكشف الرحالة عن عالم مدقق يتصف بالنزاهة والواقعية ، له ثقافته ومعارفه التى تعينه على الملاحظة الاقتناص ، هو بطل الرحلة وهو الرحالة ، وهو الشخصية المحورية .

- البداية والنهاية

فنقط الانطلاق نقطة خاصة بالنسبة لابن العربى من حيث الأحداث والملابسات التى أحاطت برحلته بين رغبته فى طلب الهلم والظروف السياسية التى دفعته للخروج ، ثم الحج وهو مطلب أفصح عنه فى قانون التأويل حيث يصرح انه خرج طالب علم وحج ،هذه الأحداث تمثل البدايةالتى مهدت للرحلة أما (محطة السفر) فهى نقطة الانطلاق من إشبيلية فى اتجاه البحر ، ثم العودة إليها فكانت محطتا القيام والوصول والنقطتان تنتميان إلى [خارج النص]، أما المتن فهو الرحلة بأحداثها وتفاصيلها تنتمي إلى داخل النص ، والمقدمة شبقية مثيرة تطرح التساؤلات لأى داع من دواعيها استجاب ابن العربى ولأى هدف من ورائها أخلص يظل كل ذلك خاتم لم يفض أو ملكية رمزية لابن العربى ، وكما احاطت التساؤلات بسر بداية الرحلة ، فقد اكتنف الغموض لحظة العودة ، لا تفصل لنا الرحلة أى أريق سلك ولا نقف على كثير من مفردات العودة ولا نعرف متى كانت لحظة الوصول ، وإذا كان غموض المقدمة

شبقى ، فإن غموض العودة يلقى بظلال تعتيمية على الرحلة ، وكما قلنا إن البداية والنهاية تقعان خارج المتن الرحلى الذى هو النص المقصود بالدراسة وفي حالة استعمال ضمير الجمع، فالهدف الواضح من ذلك هو إشهاد الآخر، أو المرافق للرحالة ، على ما يروى ، خاصة أن البداية والنهاية يدخل في المستويات الصعبة القابلة للأخذ والرد من قبل المتلقي.

المبحث الثانى

(الموضوعية والذاتية فى رحلة ابن العربى)

الحقيقة الفنية هي"ذاتية موضوعية" في آن واحد ، والرحلة التى تحت بصر الدراسة تحقق هذه المعادل القائمة بين الذات والموضوع ، ذلك أن القالب الذى اتخذته ممثلا فى شكل إخراج العمل يمثل أرضية مشتركة لفن أدب الرحلات بما حواه من بداية للرحلة ، ومغادرة لموطن الكاتب{ إشبيلية] بعودته إليها والهدف من الرحلة ثم الموضوعات الوصفية والأحداث السردية التى تخللته عمل موضوعى ولو اقتصر العمل على طبيعته الموضوعية ؛ كان شكلا من أشكال النقل الحرفى الخالى من الإبداع ، وإذا لم يضع الفنان بصمته ومشاعره ورؤيته على هذه الدائرة ، فهو لا يحقق فناً وإنما ينتج أشكالاً مجردة بلا معنى ولا هدف سوى نوع من الإدعاء الخالي من الإبداع، وإنما الحل يكمن في انصهار "الموضوعية" من ناحية مع "ذاتية" الفنان من ناحية أخرى. إن الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته ،

وهذه إحدى خصائص كتابة الرحلة ، وهذا الراوي يكون حاكيا وموضوعا للحكي ، فهو يكون حاكيا عندما يصف ، ويكون موضوعا للحكي عندما يسرد ، وبهذا يقدم الراوي معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد.[1] ولهذا نجد الذات حاضرة باستمرار ، تعبر من خلالها (الحكاية) ، فيصطبغ بأحاسيسها وميولها وعواطفها ومرجعيتها الثقافية ، وهكذا فعندما يرحل الرحالة ، لا يرحل بجسده فقط ، بل بعقله وفكره وقلبه ووجدانه أيضا.

وبهذه المعادلة المتوازنة قدم لنا ابن العربى رحلته ، فالأحداث والمرئيات التى دونها فى رحلته تحمل رؤيته تجاهها ، وتبريره لأحداثها يأتى متسقا مع هذه الرؤية ، وبذلك تعانقت المادة والتشكيل في عقل ووجدان ابن العربى من خلال العلاقة الجدلية والتفاعل الحركى بين الذات والموضوع ، فعلى الرغم من المعارف المتنوعة التى تزخر بها الرحلة ، إلا أن الرحالة ؛ وهو يقدم هذه المعارف ، إنما أخضعها لشخصيته وتكوينه الثقافي . فكانت صورة للروح العلمية التى سادت الأمصار الإسلامية زمن رحلته ، فأولاها اهتماما كبيرا ، ورسم صورة مكبرة لحلقات العلم وأساليب الدرس وطرق التحصيل ودارت أحداث ومجرياتها فى هذا الفلك الذى يمثل الاهتمام الأساس عند ابن العربى ، فقد حرص على وصف نُظم التعليم ووسائله في مكّة ، وأبدى إعجابه الشّديد بتلك الوسائل ، كما أثنى على الطّريقة المتّبعة

---

١ ــ "خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية"، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جدة، الجزء ٩، المجلد ٣، سبتمبر ١٩٩٣، ص ١٧٦.

في التَّعليم، والَّتِي تقوم على أساس التدرُّج في اكتِساب العلوم [1] ، ومهما طغت الروح العلمية على طبيعة الرحلة ، فهي من خلال الذات الممسكة بكل الخيوط تدرك أبعادها ، ونفصل حركتها ، لتقدم صورة موضوعية من الواقع من خلال رؤية ذاتية لصاحبها ، وإعادة تركيب لهذا الواقع وفق ما يتلاءم مع هذه الذاتية ، انظر إليه يحدثنا عن ركوبه البحر في رحلته من إفريقية ، في كتابه قانون التأويل ركوبه البحر: وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ، ويغرقنا في هوله ، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سليم، ونحن من السغب ، على عطب ، ومن العري، في أقبح زي، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها ، ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحترمناها أزراً، واشتملناها لفافاً ، تمجنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا، فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا،) ثم يستطرد ليحكى عن معارفه الصعيرة وكيف أفادته (وكسانا بأمر حقير ضعيف، وفن من العلم طريف، وشرحه ....) ويسنطرد فى الشرح ليفصل لنا الأحداث ، ثم يعود إلى التعقيب في وصف ما نالهم من إكرامه: (فانظر إلى هذا العلم الذي هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب ، كيف أنقذنا من العطب؟ وهذا الذكر يرشدكم إن عقلتم إلى المطلب ، وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر). فكل ما

١ــ أحكام القرآن : ابن العربي ــ تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، وما بعدها، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٣م. - ج٤ - ص٣٤٩

فى الرحلة من موضوعات ، يتوجه إليها ابن العربـــى فيتناولهــا تنــاولا ذاتيا ، يخضعه لرؤيته الخاصة مهما بلغت درجة الدقة فى التسجيل للحــدث أو المكان .

فليس بمستغرب أن تبدو ذاتية الكاتب طافحة فى كــل مقطــع منهــا مادامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات ، وأسلوبه فى القص يكــون بضميــر المتكلــم مفــردا أو جمــعا : وهــذا تجــل من تجليــات الــذات في أسلــوب الكتابـــة .

المبحث الثالث

الأسلوب بين السرد والوصف

الأسلوب : الأسلوب في اللغة : يعني السطر من النخيل وكــل طريــق ممتد ، والأسلوب ، الوجهُ ، والــمَذْهَبُ ؛ يقال: أنتم في أُسْـلُوبِ سُــوءٍ ، ويُجمَعُ أساليــبَ ، والأُسلُوبُ : الطريقُ تأْخذ فيه . والأُسْــلوبُ ، بالضــم : الفَنُّ ؛ يقال : أَخَذ فلانٌ في أساليــبَ من القول أي أفانيــنَ منه [1].

الأسلوب فى التراث العربى : عرف عبد القاهر الجرجــانى الأســلوب بأنه : (الضرب من النظم والطريقة فيه) [2]، وعرفه ابن خلــدون بأنــه (

---

١ ــ لسان العرب ــ مصدر سابق ــ باب (سلب) .

٢ ــ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانى ، قراءة وتعليق : محمود شاكر ، مكتبة الخانجى ومطبعة المدنى ، القاهرة ، ١٤٠٤هــ ص٤٦٩

المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى تفرغ فيه)[1]، والفارق بين التعريفين يكمن فى أن ابن خلدون نظر إلى الأسلوب من زاوية الشكل (القالب) ، أما عبد القاهر فنظر إليه من زاويتى الشكل والمضمون معا وهى نظرة أكثر شمولية .

الأسلوب فى النقد الحديث : ينظر أحمد الشايب إلى الأسلوبية من منظور الفن وهى نظرة شمولية ، يقول (هو الفن الأدبى الذى يتخذه وسيلة للإقناع أو التأثير)[2] ، وهناك تعريفات للأسلوب بالنظر إلى المبدع ، وبالنظر إلى المتلقى وبالنظر إلى الخطاب ، والمجال يضيق هنا عن مناقشة تلك التعريفات والفلسفة النقدية من ورائها[3] ، ونكتف بنظرة شمولية ترى فى الأسلوب : الطريقة التي يسلكها الأديب ، للتعبير عما يجول في ذهنه من أفكار ومعان ، وما يختلج في قلبه من مشاعر وأحاسيس .

---

١ ــ المقدمة ، ابن خلدون ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٤٠٨ ، ص ٥٧٠.

٢ ــ الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة القاهرة ، ط٧ ، ١٣٩٦هــ، ١٩٧٦م ، ص٤١

٣ ــ نحيل راغبى الاستزادة إلى ، الأسلوبية : مدخل نظرى ودراسة تطبيقية ، د / فتح الله أحمد سليمان ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠م ص ٩ : ١٠، الأسلوبية والأسلوب ،عبد السلام المسدى ، الدار العربية للكتاب ط٣ ١٩٨٢م تونس

ولكل فن أدبي نمط ممن أنماط الأسلوب يتناسب مع موضوعه ، ولكل نمط بنائيته التعبيرية التى تتلاءم مع الطرح والشكل . وفى أدب الرحلة يزاوج الكاتب عادة بين الوصف والسرد ، يوظفهما الكاتب فى مهارة أسلوبية تتطلبها المواءمة مابين النص والفكرة وطبيعة الموضوع ؛ للوصول إلى صياغة قادرة على حمل رؤاه ، وتوصيل أفكاره .

ولإيضاح ذلك نلقى مزيدا من الضوء حول الوصف والسرد والعلاقة بينهما.

- مفهوم الوصف ووظائفه :

يعرف قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) الوصف بأنه : "ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات "١ ، ويرى ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) بأن :"أحسن الوصف ما ينعت به الشيء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع" ٢. أي أن الوصف لون من ألوان التصوير ؛ يعكس الصورة الخارجية الحسية للأشياء إلى صورة أدبية قوامها اللغة ، والأسلوب .

- تحديد مفهوم السرد ، ووظائفه :

---

١ ــ نقد الشعر/ قدامة بن جعفر،تحقيق .كمال مصطفى، مكتبة الخانجى ١٩٤٨ م ، ص١١٨

٢ ــ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده / ابن رشيق القيروانى ، تحقيق . محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨١م ص٢/٢٩٤.

مفهوم السرد . (سرد) تعنى فى اللغة النسج والتتابع ، ففى معجمنا العربية ، السرد : درع مسرودة ومسردة بالتشديد ، وسردها اى نسجها ، وهو تداخل الحلق بعضها فى بعض ، وقيل السرد : الثقب والمسرودة المثقوبة ، وفلان يسرد الحديث إذا كان جيد السياق له ، وسرد الصوم تابعه ، وفى الأشهر الحرم ثلاثة سرد أى متتابعة وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد هو رجب ، وسرد الدرع والحديث والصوم من باب نصر ، وكلها تدور حول النسج والتتابع

أما السرد اصطلاحا فهو : هو إخبار من صميم الواقع أو نسخ الخيال أو من كليهما معا في إطار زماني ومكاني بحبكة فنية متقنة [1].

- العلاقة بينهما

والمشاهد عند معاينتنا لنص الرحلة أن الوصف هو الخطاب المهيمن مما يجعلها " من المؤلفات الوصفية غير القائمة على الحبكة [2]" بحيث يشغل الوصف حيزا كبيرا ، تاركا للسرد مساحات متداخلة فى سطور النص ، ومع ذلك لا نعد السرد فى نص الرحلة المنظور أمامنا مساعدا للوصف إذ أن السرد بما يحتويه من طاقات صيغية يظل حاضرا ، بل يتفوق كثيرا حين

---

١ ــ بنية النص السردى (من منظور النقد الأدبى) : حميد لحميدانى ــ المركز الثقافى العربى للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ ط٣ /١٩٩٣م ،ص٤٥ بتصرف

٢ -لطيف زيتوني: السميولوجيا والأدب، مجلة عالم الفكر، مج ٢٤ ع، ٣ الكويت ١٩٩٦، ص٢٥٢

تخف النبرة التقريرية الواصفة ، وإن كان الارتباط وثيقـا بـين الوصـف والسرد ، وتبعية كل منهما للآخر فالوصف فيها {"زمن من مقاطع الرحلـة ؛ يمهد لها ويؤطرها التنقل الذى يشكل المفاصل الأساسية للرحلة ١}

فوهنا يبدأ السرد فى الانطلاق ، وتتصاعد وتيرته ، ليبلغ الـذروة فـي مرحلة التجوال ثم يبدأ في الانخفاض إلى أن ينعدم مع الوصول حيث يخـتم النص بسرد طقوس الانتهاء ليصمت أخيرا.

ومن الصعب تصوير مقطع سردي خال مـن العنصـر الوصـفي ، إذ يخص السرد المظهرين الزمني والدرامي للقصة . أما الوصف فعلى العكس من ذلك يقف عند الأشخاص والأشياء بوصفها عناصر متجاورة متعاصرة[٢] ، وعلى الرغم من ذلك يبقى الوصف عنصراً مساعداً للسرد إذ ليس بإمكان الوصف أن يحل محل السرد فيقوم مقامه ويؤدي وظيفته ، ولا السرد يمكن له أن يستغني عن الوصف فبذلك يكون الوصف نافعا في السـرد ومطـوراً للحدث. ومما سبق يعمل السرد على كشف الأحداث ويساعد الوصف علـى بناء لغة القصة وإعطاء أوصاف الشخصية والحدث والمكان والأشياء .

ومن هذا المنطلق تكثر الأفعال في السرد لتدل على الحركـة ، وتبرز الأحداث والأعمال كافة مما يبرر المقـاطع الوصـفية مـن الجمـل

---

١ -لطيف زيتون :السميولوجيا وأدب الرحلات، ص٢٥٧

٢ ــ نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٣، بغداد، ١٩٨٦:.ص ٤٤١

السردية لذا تغدو الأفعال السردية في خدمة الوصف [1]. وتأتي في سياق السرد الوصفي دلالات الوصف في مستوياتها المختلفة بحيث يمكن إلحاق الوصف بجدول السرد؛ إذ تتجمع بؤرة السرد المركزية في المقاطع الوصفية وتماثلها مع دلالات المستويات السردية الأخرى مما يؤدي إلى دفع الحدث ونموه وتطوره [2].

- نص الرحلة بين الوصف والسرد

يأتى المكان فى صدارة الأشياء التى يقوم الرحالة على نقلها للمتلقى ومنحها حضورا مجسدا ، أوحيا وفق الرؤية الخاصة للمبدع وإحساسه بالمكان من وجهة نظره ، فيكسبه عمقا دلاليا . والمكان فى رحلة ابن العربى ، له حضوره القوى ، وتأتى المدن فى طليعة ما وصفه ابن العربى كلما انتهى إلى ثغر اوقفنا على أبرز ماشاهده ومالفت نظره فيه ، ونأخذ مثالا لذلك وصفه مدينة دمشق يقول : "مَدِينَةٌ بأعْلاها ، ومَدِينَةٌ بِأسفَلِها ، تَشُقُّها تِسْعَةُ أنْهارٍ؛ لِلقَصَبَةِ نَهْرٌ، ولِلجامِعِ نَهْرٌ، وباقِيها لِلْبَلَدِ، وتَجْرِي الأنْهارُ مِنْ تَحْتِها كما تَجْرِي مِنْ فَوْقِها، لَيْسَ فِيها كِظَامةٌ وَلا كَنِيفٌ ، ولا فِيها دَارٌ، ولا سُوقٌ، وَلا حَمَّامٌ، إلاَّ ويشُقُّهُ المَاءُ

---

١ ــ الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، د. موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩ : ص١٣٣.

٢ ــ أبحاث في النص الروائي العربي، د. سامي سويدان ، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٦ ص: ١٥٧

لَيلاً ونَهارًا دَائمًا أبدًا، وفِيها أرْبَابُ دُورٍ قَدْ مكَّنُوا أنفُسَـهُم مِـن سَـعَةِ الأحْوالِ بِالماءِ، حتَّى إنَّ مُستَوقَدَهُم عليه ساقِيةٌ، فإذا طُبِخَ الطَّعامُ وُضِعَ في القَصعةِ، وأرْسِلَ في السَّاقِية، فيُجْرَفُ إلى المَجْلِـسِ فيُوضَـعُ فـي المَائدةِ ، ثُمَّ تُرَدُّ القَصعةُ مِن النَّاحية الأخْرى إلـى المُسْـتَوقَدِ فَارِغـةً، فَتُرْسَلُ أُخْرى مَلأى، وهَكَذَا حتَّى يَتِمَّ الطَّعـامُ، وإذا كَثُـرَ الغُبـارُ فـي الطُّرُقَاتِ أمَرَ صاحِبُ الماءِ أن يُطْلَقَ النَّهْرُ علـى الأسْـواقِ والأرْبـاضِ فيَجْرِي الماءُ علَيْها، حتَّى يَلْجأَ النَّاسُ فـي الأسْـواقِ والطُّرُقَـاتِ إلـى الدَّكاكينِ، فإذا كُسِحَ غُبارُها سَكَّرَ السَّاقِيانِيُّ أنْهارَها، فَمَشَيْت في الطُّرُقِ على بَرْدِ الهَواءِ ونَقَاءِ الأرْضِ، ولهَا بَابُ جَيْرُون بْنِ سَعدِ بْـنِ عُبَـادَةَ، وعِنْدَهُ القُبَّةُ العَظِيمةُ والمِيقَاتَاتُ لِمَعْرِفَةِ السَّاعاتِ ، عَليْها بابُ الفَرَادِيسِ لَيسَ في الأرْضِ مِثْلُه ، عِنْدَهُ كَانَ مَقرِّي، وإليْه مِن الوَحْشَةِ كَانَ مَفرِّي، وإلَيْه كَانَ انْفِرادِي لِلدَّرْسِ والتَّقرِّي، وفِيها الغُوطةُ مَجْمَـعُ الفَاكِهـاتِ، ومَنَاطُ الشَّهَواتِ، عليْها تَجْرِي المِياهُ، ومِنْهـا تُجْتَنَـى الثَّمَـراتُ"[٣١].

وابن عربى فى وصفه لدمشق يسترسل فى عبارته فلا تكاد تلمح أثـرا للسجع أو الصنعة ، وقد مازج فيها بين الجمـل القصـيرة المترادفـة ،"مَدينَةٌ بأعْلاها ، ومَدِينَةٌ بِأسفَلِها ، تَشُقُّها تِسعَةُ أنْهارٍ؛ لِلقَصَبَةِ نَهْـرٌ، ولِلجامِعِ نَهْرٌ، وباقِيها لِلْبَلَدِ ....، والجمل الأطول نسبيا عند الوصـف أو التعليل ، وتراه ويتخلل وصف السرد حين يجمـع حـوادث أو عناصـر ويجدلها حلقات سردية، فصورة الماء الناقل لمفردات موائـد الأغنيـاء

،والماء المتفق على المينة يخلصها من الغبار ويعيد إليها البهاء [1] وهكذا ، وتشعر بنفسه المبهورة بهذه المشاهدات ، فهو لا أراه واصفا دمشق وصفا جغرافيا يقربها ممن لم يرها ، ولكنه واصف حالته الخاصة تجاه هذه المدينة المترفة بآثاره الغنية بحدائقها المبتكرة لكثير من ثور الثراء والترف .

لكنه حين يقدم لنا محراب داوود عليه السلام يولى عنايته بالوصف الدقيق له ، والوقوف على دقائقه وطريقة وصفه تقترب من عمل الأثريين أو الجغرافيين،يقول : "شاهَدْت مِحْرابَ دَاوُد - عليه السلام - في بَيْت المَقْدِس بِناءَ عَظِيمًا مِنْ حِجارَةٍ صَلْدَةٍ لا تُؤَثِّرُ فِيها المَعاوِلُ، طُولُ الحَجَر خَمْسُونَ ذِراعًا، وعَرْضُه ثَلاثَةَ عَشَرَ ذِراعًا، وكُلَّما قَامَ بِناؤُهُ صَغُرَتْ حِجارَتُه، ويُرى لَه ثَلاثَةَ أَسْوَارٍ؛ لأنَّهُ في السَّحابِ أَيَّامَ الشِّتَاءِ كُلَّها لا يَظْهَرُ لارْتِفاعِ مَوْضِعِه وارْتِفَاعُهُ في نَفْسِه، لَهُ بَابٌ صَغِيرٌ، ومَدْرَجَةٌ عَرِيضَةٌ، وفِيه الدُّورُ والمَساكِنُ، وفي أَعْلاهُ المَسْجِدُ، وفِيه كُوَّةٌ شَرْقِيَّةٌ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى في قَدْرِ البابِ... ولَيْسَ لأَحَدٍ في هَدْمِه حِيلَةٌ" [1]

يعتمد ابن العربى على وصف جزئيات المكان وصفا تفصيليا ، ويقدم هذا الوصف من خلال جمل متوسطة الطول ، وبعبارة مسترسلة ، وفى محاولته لتجسيد الموصوف بحذافيره كلها ، يلجأ إلى استقصاء الأبعاد والأشكال والأحجام كما يفعل المتخصصون فى الجغرافية الوصفية أو

---

[1] ــ المرجع السابق

الأثريين بالانتقال من الموصوف إلى أجزائه ومكوناته ، يتنقل بين مفردات الموصوف بدقة ؛ ليجمعها في مكانها الخاص وحدة واحدة متضامة حتى يتم الوصف بوضوح .

ومن أمثلة المزاوجة ، بين السرد والوصف تلك الحادثة التى وقعت له فى طريقه بحرا من المهدية مع أبيه ، يقول : ثمَّ ركبا البحْر من المهدية متَّجهين إلى الحجاز، فتحطَّمت السَّفينة، ونجا أبو بكْر وأبوه من الغرق، وكان خروجُهما بموضع من ساحل طرابلس (برقة) ، تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم، قال: "وقد سبق في علْم الله أن يعظم علينا – أي البحْر – بزوله ١، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر خروج الميِّت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب من سليم، ونحن من السَّغب ٢، على عطب، ومن العري في أقبح زي، قد قذَف البحر زقاق زيت مزَّقت الحجارة هيئتها، ودَسَّمَتِ الأدهان وبَرَها وجلدتَها، فاحتزمناها أُزرًا، واشتملناها لفافًا، تمجُّنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطَف أميرُهم علينا ..... فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله على يديه وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا"[٨٧]٣[١٥].

يحوي النص الوصفي السابق سيلاً من الجمل السردية المتلاحقة التي لا تخلو أفعالها من الصدى الوصفي . منها مادل وأبوه نحو ركبا ، نجا وكان

---

[١] ــ أي بعجائبه

[٢] ــ السغب: الجوع مع التعب.

[٨٧]٣ ــ ابن العربي: قانون التأويل – ص٨٥.

خروجُهما فخرجنا وانتهيْنا فاحتزمناها والضمائر كما نــرى بلســان حــال المتكلم نا ، كما دلت بعض الأفعال على حال السفينة والبحر ، نحو تحطَّمت السَّفينة، و ويغرقنا ، قد قذَفَ البحر ، وحال زيهمــا ومــا اعتــراه مزَّقَــت الحجارة هيئتها، وَنَسَّمَتِ الأدهان وَبَرَها وجلدتَها ، في تراكيب تصف الحالة التى هم عليها بعد تحطم السفينة ، وهذه الأفعال بأزمنتها المختلفة وتلــون الاسناد من المتكلم والمخاطب والغائب ، شحنت بالحركة وملئت بالــدلالات لينقل القارىء إلى رتبة المشاهد للأحداث لحظة وقوعها بل ومتابعتها فــى تتابعها وتطورها ؛ وبهذا اشتركت معاً في إبراز الحدث ، ودفعــه وتطــوره الى الأمام بفعل الأصداء الوصفية للحدث التى تفاعلت مع المكــان لإكمــال المشهد

والمشهد هو أحد شخوصه ، يحكي أحداث قصة شارك في أحداثها بــل هو محور الأحداث ومحركها ، وهو السارد لها ، فهو على مستوى السرد خارج عالم القصة باعتباره ساردا ، ومشاركا في أحداث القصــة باعتبــاره شخصية مجورية فيها ، وأكثر ما نجد هذا في السرد الرحلي لكونــه ســردا استرجاعيا

حيث يعاين السارد شريطا ممتدا متصلة حلقاته في مما يجعل سرد قصة السفر جردا للذاكرة يستدعى منها وهذا الاستدعاء يتحكم فيه طبيعة الحدث أو الشخص أو المكان ، ومدى تأثرها به ، وانطباعاته نحوه ؛ من عوامــل بقائه في الذاكرة .

ومن هذا المنطلق تكثر الأفعال في السرد لتدل على الحركــة ، وتبــرز الأحداث والأعمال كافة مما يبرر المقاطع الوصفية من الجمل السردية لــذا

تغدو الأفعال السردية في خدمة الوصف . وتأتي في سياق السرد الوصفي دلالات الوصف في مستوياتها المختلفة مع دلالات المستويات السردية الأخرى

خاتمة

وبعد هذا التطواف مع ابن العربى مرتحلا معه ، وقد وصل القطار بى إلى محطته الأخيرة ، أحط عصا رحالى ، بعد رحلة طويلة قصيرة شائقة شائكة ، رافقت فيها عالما جليلا فأفدت من علمه ، وتزودت كثيرا من فضل زاده . وها أنا ذا أحاول أن احصى نتائج رحلتى تلك

- قدمت ابن العربى الرحالة ، والأديب المدون الأول لأدب الرحلات
- صححت ما استقر لدى كثير من الباحثين على تقدم ابن جبير وسبقه ، وأثبت السبق لأبن العربى ، وليس ذلم إلا من باب وضع الحقيقة فى نصابها.
- فتشت عن الرحلة بين الكثير من كتبه بعد أن ضاع الأصل وصارت الرحلة مبثوثة فيها
- قدمت دراسة أدبية لهذه الرحلة تضمنت كثيرا من القضايا المتعلقة بهذا اللون من الأدب الذى كثيرا ما ينصرف عنه الباحثون

• وضعت نص الرحلة تحت بصر النقد الأدبى الحديث وقمت بتحليل اجزاء منها ، وتقديم رؤية شمولية عنها فى محاولة متواضعة ، أن [1] يفتح بحثى الباب للمنصرفين عن أدب الرحلة لولوجه .

وأخيرا لا أملك إلا أن أرفع أكف الضراعة ، وأتوجه بالشكر على الله العلى القدير الذى أعان بتوفيقه ، وسدد بفضله ، وفتح بلطفه ، فكان هذا العمل الماثل بين يدى القارىء مخاولة متواضعة من صاحبه لعله تمثل شيئا فى كتابات أبناء الأزهر النقدية

١

المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : كتب السنة النبوية

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر ، الناشر : دار طوق النجاة ، الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ
- جامع الأصول في أحاديث الرسول : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفى : ٦٠٦هـ) ، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط – مكتبة دار البيان ، الطبعة : الأولى

- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني : دار الفكر/ بيروت ت : محمد فؤاد عبد الباقي
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين طبعة بولاق

ثالثا : المعاجم اللغوية والأدبية ا

- القاموس المحيط : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤
- قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربي-إنكليزي-فرنسي، إميل يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧
- لسان العرب : محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

- معجم البلدان – ياقوت الحموي ، / شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ، الناشر : دار صادر بيروت: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
- معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، القاهرة: مطبعة سركيس، (١٣٤٦ه/ ١٩٢٨م .
- معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤
- معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكرعام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

رابعا : مصادر الرحلة

- أحكام القرآن، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ــ ابن العربي ــ دار الكتب العلمية، ج٤ ، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٣م.
- العواصم من القواصم تحقيق محب الدين الخطيب – ومحمود مهدي الاستانبولي الناشر : دار الجيل بيروت – لبنان الطبعة : الثانية ، ١٤٠٧هـ
- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، أبو بكر محمد بن عبد الله، ط١، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٥ه ١٩٩٥م

- قانون التأويل - أبو بكر بن العربي / تحقيق محمد السليماني - دار الغرب الإسلامي- بيروت - ١٩٩٠م.
- مع القاضى ابن العربى ــ سعيد أعراب ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت لبنان ، ط١، ١٤٠٧هــ ، ١٩٨٧م

خامسا : مصادر عامة

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، أحمد أبو العباس المقري التلمساني
- الأعلام خير الدين الزركلى ط بيروت ١٩٨٠م
- البداية والنهاية / ابن كثير ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي دار هجر
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، تحقيق عزت العطار الحسينى، القاهرة، ١٩٥٥م
- التوهم للحارث المحاسبي ، طبع المكتبة الإسلامية - القاهرة . سنة ٢٠٠٦
- الحلة السيراء، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (المتوفى: ٦٥٨هــ) تحقيق : الدكتور حسين مؤنس ، دار المعارف - القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٩٨٥م
- الذخيرة ابن بسام ، تحقيق : سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية

- المغرب فى حلى المغرب ،ابن سعيد المغربي ، تحقيق / شوقى ضيف ، دار المعارف ، بدون تاريخ ، ط ٤
- تاريخ ابن خلدون المسمي، بكتاب آلعبر و ديوان المبتداء و الخبر في ايام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر طبعة دار الكتاب اللبناني
- جمهرة أنساب العرب ــ علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي االظاهري التصنيف: طبعه دار المعارف–مصر سنه ١٩٣٤
- رسالة التوابع والزوابع " أبو عامر ابن شهيد الأشجعى الأندلسى / تحقيق إحسان عباس ، نشر جامع التراث
- رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، تحقيق وشرح د / عائشة عبد الرحمن / ط٩ / دار المعارف . بدون تاريخ .، سير اعلام النبلاء ، محمد بن احمد عثمان الذهبى مؤسسة الرسالة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م
- شذرات الذهب / لابن العماد ، دار الكتب العلمية
- طبقات الحفاظ للسيوطى ، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ، ١٤٠٣هـ
- مقدمة ابن خلدون - تحقيق علي عبدالواحد وافي - ج٢ - ص٦١٦ وما بعدها - مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م - القاهرة

- مؤرخو الشرفاء. بروفنصال، ليفي خلادي، عبد القادر دار المغرب
- نفح الطيب ، أحمد بن المقري التلمساني - تحقيق إحسان عباس ، دار صادر - بيروت - ١٩٦٨م.- ج٢ ١٩٧٧

سادسا : مصادر نقدية

- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده / ابن رشيق القيروانى ، تحقيق . محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨١م
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجانى ، قراءة وتعليق : محمود شاكر ، مكتبة الخانجى ومطبعة المدنى ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ
- نقد الشعر/ قدامة ين جعفر،تحقيق .كمال مصطفى، مكتبة الخانجى ١٩٤٨ م ،

سابعا : المراجع

- أبحاث في النص الروائي العربي، د. سامي سويدان ، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٦م
- أدبية الرحلة: عبد الرحيم مؤدن ، دار الثقافة، ١٩٩٦.
- الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة القاهرة ، ط٧ ، ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م

- الأسلوبية : مدخل نظرى ودراسة تطبيقية ، د / فتح الله أحمد سليمان ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠م
- الأسلوبية والأسلوب ،عبد السلام المسدى ، الدار العربية للكتاب ط٣ ١٩٨٢م تونس
- الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة، د. موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩م
- الأنثروبولوجيا /الدكتور عيسى الشمّاس / من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٤
- الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ٢٠٠٣
- المصادر العربية لتاريخ المغرب، من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ح١ ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٣م
- بنية النص السردى (من منظور النقد الأدبى) : حميد لحميدانى ــ المركز الثقافى العربى للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ــ ط٣ /١٩٩٣م
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، أغناطيوس كراتشكوفسكي ، ترجمة صلاح الدين هاشم، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م)
- دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، تأليف : عبد السلام بن سودة المري، ضبط واستدراك مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر

منشورات : دار الفكر للطباعة والنشر _ بيروت الطبعة الاولى _ ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

- مشوار كتب الرحلة ـ قديما وحديثا ـ د / سيد حامد النساج / مكتبة غريب / بدون تاريخ
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٣، بغداد، ١٩٨٦:.

ثامنا : الدوريات

- الرحلات في الأدب الإنجليزي"، إنجيل بطرس، مجلة الهلال، العدد ٧، السنة ٨٣، يوليو ١٩٧٥
- . محمد المنوني، الجزيرة العربية في الجغرافيا والرحلات المغربية وما إليها، الندوة الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، ج٢، ص٢٩٩.
- محمد أحمد العقيلي: "قبيلة بني شعبة" مجلة العرب – ج١١، ١٢ – ١٩٧٤م – ص٨٩٧ وما بعدها – الرياض – دار اليمامة.
- خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية"، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جدة، الجزء ٩، المجلد ٣، سبتمبر ١٩٩٣، ص ١٧٦. –
- لطيف زيتوني: السميولوجيا والأدب، مجلة عالم الفكر، مج ٢٤ ع، ٣ الكويت ١٩٩٦